قل هذه سبيلي

Perpustakaan Pribadi
Ubaidillah Arsyad

تأليف العلامة المحدث المحقق
السيد محمد بن علوي المالكي الحسني
خادم العلم الشريف بالبلدالحرام
رحمه الله تعالى

MAKTABAH
KITAB
NUSANTARA

DILARANG
MEMPERJUALBELIKAN PDF INI

Perpustakaan Pribadi
Ubaidillah Arsyad

عبيد الله أرشد

J ol Al Firdaus

Bermi - Gembong - Pati Jateng

قل هذه سبيلي

تأليف

السيد محمد بن علوي بن عباس المالكي المكي الحسني

رحمه الله وغفر له ولوالديه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعدُ: فهذه صَفَحات في العقيدة الإسلامية وأركان الدين مما يُحتاج إليه المسلم.

وفّق الله الجميع لما يحبه ويرضاه.

محمد بن علوي بن عباس المالكي المكي الحسني

لا إله إلا الله:

أما بعدُ: فإنا نعلم ونعتقد، ونؤمن ونوقن ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ومعنى ذلك أنه لا مَعْبود بحقّ، ولا مُسْتغني عما سواه ولا مفتقر إليه كل ما عداه إلا الله تعالى (وحده لا شريك له). ويَنْدرج في ذلك جميع العقائد المتعلّقة به تعالى.

فهو إله عظيم، مَلِك كبير، لا ربّ سواه، ولا معبود إلا هو.

هو الأول الذي لا ابتداء لوجوده فلا ابتداء لأوّليّته وهو الآخر الذي لا انتهاء لوجوده فلا انتهاء لآخريّته.

وهو (الأحد) المُنفرد في ألوهيته وربوبيته فلا شريك له (الصمد) المقصود في الحوائج على الدّوام لكمال قدرته.

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾.

فلا شبيه له ولا نَظير ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

ليس كمثله شيء:

وأنه تعالى مُقدّس عن الزمان والمكان فلا يُقارنه زمان ولا يحويه مكان إذ هو الخالق للزمان والمكان فكيف يَحتاج إليهما؟.

وأنه تعالى مُنزّه عن مشابهة شيء من المخلوقات في شيء من أوجه الشبه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

فلا تحيط به الجهات كقُدّام وخلف وفوقَ وتحت ويمين وشمال، إذ هي حادثة بحدوث الأشياء والله تعالى مُنزّه عن ذلك.

وهو سبحانه وتعالى، لا تَعْتَرِيه الحادثات كالأمراض والاحتياج والحركة والسُّكون والجوع والشهوة ونحو ذلك مما يحدث للخلق وينافي الجلال والكمال الإلهي. فهو سبحانه منزّه عن صفات المخلوقين. ونؤمن بما جاء في كتاب الله من صفات الله جل جلاله على مُراد الله من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكْييف.

على العرش استوى:

فنؤمن بالاستواء الذي قال عنه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. استواء يليق بعزّ جلاله وعلوّ مَجْده وكبريائه.

فالإيمان بالاستواء واجب وإن جهلت حقيقة العرش وكيفية استوائه تعالى عليه، ولمّا قام البُرْهان على تنزهه تعالى عن الحيّز والمكان والجهة وسائر لوازم الحدوث وجب أن يكون استواؤه على عرشه لا بمعنى الاستقرار والتمكن بل بالمعنى اللائق بجلاله تعالى. ونؤمن باليد كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ونؤمن بالعين كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

ونؤمن بكل ما جاء عن الله في كتاب الله على مراد الله.

القريب:

وأنه تعالى قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى الإنسان من حَبْل الوريد وعلى كل شيء رقيب وشهيد.

وقُرْبُه تعالى كما يليق بجلاله، لا قرب مكان لاستحالته عليه

تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] أي بعِلْمه المُحِيط وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] أي بعمَلِنا، بقَرِينة قوله تعالى قَبْله: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]. وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

أي: بعِلْمه المحيط، بقَرِينَة قوله قبله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة: ٧].

الحَيّ القَيّوم:

وأنه تعالى «حيٌّ» متصف بالحَياة الدائمة، التي لا بداية لها، ولا نهايةَ «قيوم» عظيم القِيَام بتدبير خلقه.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

والبديع: المُبْدع والمُنْشِئ للأشياء بلا احتِذاء ولا اقتِداء.

الوكيل:

وأنه تعالى الوكيل أي المُتصرّف في كُلّ شيء كيف يشاء، أو حفيظ عليه أو شهيد ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

القدير:

وأنه تعالى هو القدير أي المتصف بالقدرة التامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] فلا شيء من المُمْكِنات وهي التي يجوز وجودها وعدمها إلا وهو في قَبْضَة قُدرته، وتحت قَهْره وسُلْطانه.

العليم:

وأنه سبحانه هو العليم أي المُتصف بالعِلْم ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] يعلمُ أزلاً كل شيء، واجباً كان أو مُمكناً أو مُستحيلاً، على وجه الإحاطة به على ما هو به دون سَبْق خفاء.

وأنه تعالى أحصى عدد كل شيء، وأحاط به ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

المريد:

وأنه تعالى مُريدٌ للكائنات فهو مُتصف بالإرادة، وهي تتعلق بإيجاد الأشياء المُمكِنة في أوقاتها المحدودة لها، على وَفْق ما سبق به العلم، فلا موجودٌ منها إلا وهو مُستَنِد إلى مَشيئته، وصادرٌ عن إرادته فهو تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١]. ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وأنه تعالى مدبّر للحادثات ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

وأنه لا يكون كائن من خير أو شر، أو نفع، أو ضُرّ إلا بقضائه ومَشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولو اجتمع الخلق كلهم

على أن يُحَرّكوا في الوُجودِ ذرّةً أو يُسَكّنوها دون إرادته تعالى لَعَجَزوا عنه.

السميع البصير:

ونؤمن أنه تعالى سَميع بصير - أي مُتّصف بالسمع والبصر - لجميع المَوْجودات بدون حاسّة وآلة، لتنزّهه تعالى عن مشابَهَةِ الحوادث، فلا يَعْزُب عن رؤيته هواجس الضمير، وخفايا الوَهْم والتفكير، ولا يَشِذُّ عن سمعه دبيبُ النملة السوداء، وفي الليلة الظلماء، على الصخرة الصَّمَّاء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

المتكلم:

ونُؤمِنُ أنه تعالى مُتكلّم بكلام لا يُشْبه كلام الخلق ولا يصحّ أن نصفَ كلامه بغير ما جاء عنه تعالى لأن ذلك جراءة على الله تعالى فقد أخبرَ عن نفسه بأنه كلّمَ موسى تكليماً وأنه لا يكلّم يومَ القيامة بعض أرباب الكبائر فنكتفي بإثبات الكلام له سبحانه وتعالى مُقتَصرين على ما وردَ في القرآن الكريم.

القرآن كلام الله:

ونؤمِنُ بأن القرآن العظيم كلامه القديم، وكتابه المنزّل على نبيه ورسوله محمد ﷺ.

واعلم بأن القرآن يُطلق بالاشتراك على مَعنَيَيْن: أحدهما - الكلام القديم والثاني النظم المَقروء المَسموع المَحفوظ المَكتوب بين دفتي المصحف، وهو كتاب الله تعالى المنزل على رسوله بلسان جبريل عليه السلام، المنقول بالتواتر المُعجز للبشر، وهو بالمَعنَيَيْن كلام الله تعالى.

وتسميته بالمعنى الأول كلام الله باعتبار أنه صفة له تعالى قديمة أزليّة وبالمعنى الثاني باعتبار أنه تعالى أنشأه برقومه في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢] وبحروفه في لسان الملك جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير: ٣٢] وهو بهذا المعنى مُحْدَث من الله ولكن لا يقال فيه مُحْدَث إلا في مقام التعليم واحترازاً عن ذهاب الوَهْم إلى القرآن بالمعنى الأول.

كما أنه بهذا المعنى دالّ على ما يدلُّ عليه الكلام القديم، فإذا سمعتَ مثلاً آية ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢] فهمتَ منها النهي عن قربانه، ولو كشف عنك الحِجاب وسمعتَ الكلامَ الأزلي تفهم منه هذا المعنى بعَينه، فمَدلولهما واحد وإن اختلف الدال.

ولا يجوز لأحد أن يعتقد أن الرسول ﷺ تصرّف في اللفظ المُنْزل عليه، أو أنه رواه بالمعنى كرواية الحديث بالمعنى للعارف، لأنه لو صح في حقه ذلك لكان مبيناً لنا صُورة فهمه ﷺ لا صورة ما نزل عليه وقد قال تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

الخالق الرازق:

وأنه سبحانه الخالق لكل شيء، والرازق له والمُدبّر له والمُتصرّف فيه كيف يشاء ليس له في مُلكه مُنازع ولا مُدافع، ويُعطي من يشاء، ويَمنع من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويُعذب من يشاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الحكم العدل:

وأنه تعالى حكيم في فعله، عَدلٌ في قضائه، لا يُتصوّر منه ظلم ولا

جَوْر ولا يجب عليه لأحد حق بل الحقّ واجب له على كل أحد، إذ هو سبحانه الرب المُنعم المُتفضّل بالإيجاد والإمداد، والتدبير والإرشاد، والإنعام على جميع العباد ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(١).

ولو أنه سبحانه أهلك جَمِيعَ خلقه في طَرْفة عين لم يكن بذلك جائراً عليهم، ولا ظالماً لهم، فإنهم مُلْكه وعبيده، وله أن يفعل في مُلْكه ما يشاء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] يثيب عباده على الطاعات فضلاً وكرماً، ويعاقبهم على المعاصي حكمة وعدلاً.

وأن طاعته واجبةٌ على عباده بإيجابه على أَلْسنة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

ونؤمن بكل كتاب أنزله الله وبكل رسول أرسله الله وبملائكة الله تعالى وبالقدر خيره وشره.

محمد رسول الله:

ونشهد أن محمداً عَبْدُ الله ورسوله، أرسله إلى الجن والإنس، والعَرَب والعَجم بالهُدَى ودينِ الحق ليُظْهره على الدين كله ولو كَرِه المشركون.

وأنه بَلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، ونَصَح الأمة، وكَشَف الغُمّة، وجاهد في الله حق جهاده، وأنه صادق أمين، مُؤَيّد بالبراهين الصادقة، والمُعجزات الخارقة وأن الله فَرَض على العباد تصديقه وطاعته واتباعه.

وأنه لا يُقبَلُ إيمانُ عَبدٍ - وإن آمن به سبحانه - حتى يؤمن بمحمد ﷺ، وبجميع ما جاء به، وأَخبَر عنه من أمور الدنيا والآخرة والبَرْزَخ.

«ومِن ذلك» أن يُؤمن بسؤال مُنْكَر ونَكِير للموتى عن التوحيد والدين والنبوة وأن يُؤمن بنعيم القبر لأهل الطاعة وبعذابه لأهل المَعْصية، وأن

يؤمن بالبعث بعد الموت، وبحَشر الأجساد والأرواح إلى الله، وبالوقوف بين يدي الله، وبالحساب وأن العباد يتفاوتون فيه إلى مُسامَح ومُناقَش، وإلى من يدخل الجنةَ بغير حساب وأن يؤمن بالميزان الذي توزَن فيه الحسنات والسيئات وبالصراط وهو جِسْر ممدود على متن جهنم، وبحوض نبينا محمد ﷺ الذي يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة، وماؤه من الجنة.

وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء، ثم الصّديقين والشهداء والعُلماء والصالحين والمؤمنين وأن الشفاعة العُظمى مَخصوصة بمحمد ﷺ وهي التي تكون في فصل القضاء وإلا فإن له ﷺ شفاعات أُخَر.

وأن يؤمن بإخراج من دخل النارَ من أهل التوحيد، حتى لا يَخلُد فيها من كان في قلبه مِثقال ذرّة من إيمان قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وأن أهل الكفر والشرك مُخلّدون في النار أبدَ الآبدين، و﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢] وأن المؤمنين مُخلدون في الجنة أبداً سَرمَداً ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وأن المؤمنين يرَوْن ربهم في الجنة بأبصارهم على ما يليق بجلاله وقدس كماله.

ويجب على العبد أن يعتقد فضل أصحاب رسول الله ﷺ وأنهم عُدول خيار أُمَناء. ولا يجوز سَبُّهم ولا القَدح في أحد منهم، وأن الخليفة الحق بعد رسول الله ﷺ «أبو بكر الصديق»، ثم «عمر الفاروق»، ثم «عثمان الشهيد» ثم «علي المرتضى» رضي الله تعالى عنهم، وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم برحمتك اللهم يا أرحم الراحمين.

الشهادتان

أما الشهادتان: فهما أصل الأصول التي من حرمها فهو من رحمة الله محروم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومعنى «لا إله إلا الله»: نفي الألوهية عما سوى الله وإثباتها له وحده. والألوهية: استحقاق صفات الكمال كلها فلا معبود إلا الله، ولا خالق ولا رازق إلا الله، ولا معطي ولا مانع إلا الله، ولا ضار ولا نافع إلا الله، وهكذا في جميع المُلك والملكوت، لا يملك أحد مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

ولو أمكن أن يكون له سبحانه شريك في الألوهية لوجب أن يتصف ذلك الشريك بصفات الألوهية: من نفاذ القدرة، وشمول العلم والإرادة ولأدى ذلك إلى اختلاف الإرادات، فيريد أحد الإلهين مثلاً وجود شيء ويريد الآخر عدمه، ومحال أن يحصل المرادان معاً لاستحالة اجتماع الضدين، كذلك أن لا يحصل شيء منهما، إذ يؤدي ذلك إلى فساد العالم وعدم وجود شيء فيه وهو باطل، ولم يبق إلا أن يحصل مراد أحدهما فقط، وذلك دليل على نفاذ قدرته واستحقاقه الألوهية، فدل ذلك بطريق العقل على امتناع الشريك في الألوهية، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ومعنى «محمد رسول الله»: أن تعتقد أن الله أرسل النبي الأميّ، العربيّ القرشي الهاشمي، محمداً ﷺ إلى كافّة الجن والإنس، وأيّده بالوحي، وألزم الخلق طاعته فيما أمر به ونهى عنه، وتصديقه فيما أخبر به، ومنع كمَال شهادة التوحيد بلا إله إلّا الله ما لم تقترن بها شهادة الرسالة لمحمّد ﷺ.

سيد ولد آدم
محمد رسول الله

اعلم أننا نعتقد اعتقاداً جازماً فيه ﷺ وهو الاعتقاد الموافق للواقع بأنه سيد عَبيد الله على الإطلاق، وأقرب الوسائل إليه تعالى في مدة حياته ويوم القيامة التي تظهر فيه سيادته ﷺ على النبيين والخلق أجمعين حتى يكون صاحب الشفاعة العُظمى والمَنزلة الزُّلفى، وحامل لواء الحمد تحته آدم فمن دونه، وكل الأنبياء يُقِرُّ له بهذه السيادة حين يمنحها الله تعالى في ذلك اليوم على الأولين والآخرين والخلق أجمعين. وقد جاء ذلك صريحاً في حديث البخاري ومسلم وهو قوله ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة» إلى آخِر حديث الشفاعة المذكور فيه التجاء الناس لسادات الأنبياء، فيعتذر كل واحد منهم ويُحيل على مَن بعده إلى أن يُحيلهم سيدنا عيسى عليه السلام على الحبيب الأعظم ﷺ فيقبلهم ويقول لهم: «أنا لها أنا لها» ويَشفع فيُشفّعه الله تعالى فيهم.

وكان يمكن أن يأتيه الناس أوّلاً ولكنّ الله تعالى ألهمَهُم الذهاب إلى سادات الرُّسل أوّلاً حتى يُظهر فضله ﷺ عليهم وأنه سيد الخلق على الإطلاق وأحبَّ الرسُلِ إلى المَلِك الخلّاق، وهذا المعنى وإن لم يعلمه بالتفصيل على هذا الوجه كثير من عوام المسلمين إلا أنهم يعلمون يقيناً أنه ﷺ بالإجمال هو سيد الخلق على الإطلاق في الدنيا والآخرة، وأنه مقبول الشفاعة عند الله تعالى في الدنيا والآخرة،

ويَتَوسّلون به إليه عز وجل ليُبلّغهم مُناهم في دنياهم وأخراهم فقد شاركوا في هذا المعنى أعلمَ العلماء، واستوى في عِلم ذلك الرجال والنساء، ويُربّون أولادهم على هذا الاعتقاد الصحيح والإيمان الصّريح، فلا يبلغ الولد سنّ التّمييز إلا ويشاركهم في هذه العلم في حقّ النبي ﷺ وكلما كَبُر يَزداد ذلك رُسوخاً في قلبه ونمُواً بقدر ما قدّر الله تعالى له من الهداية والتوفيق.

قل إنما أنا بشَر

ونعتقد أنه ﷺ بشَر يجوز عليه ما يجوز على غيره من البشر من حصول الأعراض والأمراض التي لا توجب النقص والتّنفير كما قال صاحب العقيدة:

وجائز في حقّهم مِن عرَض بغير نَقْص كخفيف المرض

وأنه ﷺ عبْد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وأنه ﷺ قد أدّى الرسالة وبلّغ الأمانة ونَصح الأمة وجاهَد في سبيل الله حتى أتاه اليقين فانتقل إلى جوار ربه راضياً مَرضياً قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والعبودية هي أشرف صفاته ﷺ ولذلك فإنه يفتخر بها ويقول: «إنما أنا عبد» ووصفه الله بها في أعلى مقام فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩].

البشرية هي عين إعجازه فهو بشر من جنس البشر لكنه متميّز عنهم بما لا يلحقه به أحد منهم أو يساويه كما قال ﷺ عن نفسه: «إني لستُ كهيئتكم إني أبيتُ عند ربّي يُطعمُني ويَسقيني» وبهذا ظهر أن وصفه ﷺ بالبشرية يجب أن يقترن بما يميزه عن عامة البشر من ذكر خصائصه الفريدة ومناقبه الحميدة، وهذا ليس خاصاً به ﷺ بل هو عام في حق جميع رُسُل الله سبحانه وتعالى لتكون نظرتنا إليهم لائقة بمقامهم وذلك لأن ملاحظة البشريّة العاديّة المُجرّدة فيهم دون غيرها هي نظرة جاهلية شركيّة، وفي القرآن شواهد كثيرة على ذلك، فمن ذلك قول قوم نوح في حقه فيما حكاه الله عنهم إذ قال: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

ومن ذلك قول فرعون وملائه في حقّ موسى وهارون فيما حكاه الله عنهم إذ قال: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

ومن ذلك قول ثمود لنبيهم صالح فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

ومن ذلك قول أصحاب الأيكة لنبيهم شعيب فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٦].

ومن ذلك قول المشركين في حق سيدنا محمد ﷺ وقد رأوه بعين البشرية المجردة فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

ولقد تحدّث رسول الله ﷺ عن نفسه حديث الصدق بما أكرمه الله تعالى به من عظيم الصفات وخوارق العادات التي تميّز بها عن سائر

أنواع البشر.

فمن ذلك ما جاء في الحديث الصحيح أنه قال: «تنام عيناي ولا ينام قلبي» وجاء في الصحيح أنه قال: «إني أراكم من رواء ظهري كما أراكم من أمامي».

وجاء في الصحيح أنه قال: «أوتيت مفاتيح خزائن الأرض» وهو ﷺ وإن كان قد مات إلا أنه حي حياة برزخية كاملة يسمع الكلام ويرد السلام وتبلغه صلاة من يصلي عليه، وأن الله حرم على الأرض أن تأكل جسده فهو مخفوظ من الآفات والعوارض الأرضية.

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي، قالوا: يارسول الله: وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ـ يعني بليت ـ؟ فقال: «إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه. وفي ذلك رسالة خاصة للحافظ جلال الدين السيوطي أسماها (إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله إلي روحي حتى أرد عليه السلام» رواه أحمد وأبو داود.

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وكل بقبري ملكاً أعطاه الله أسماء الخلائق فلا يصلي علي أحد إلى يوم القيامة إلا أبلغني باسمه واسم أبيه هذا فلان بن فلان قد صلى عليك» رواه البزار وأبو الشيخ وابن حبان ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «إن الله

تبارك وتعالى وكل ملكاً أعطاه أسماء الخلائق فهو قائم على قبري إذا مِتُّ فليس أحد يُصَلِّي عليَّ صلاة إلا قال: يا محمدُ صلَّى عليك فلان ابن فلان، قال: فيصلِّي الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشراً» رواه الطبراني في الكبير بنحوه.

وهو ﷺ وإن كان قد مات إلا أن فضله ومقامه وجاهه عند ربه باقٍ لاشك في ذلك.

ولا ريب عند أهل الإيمان أنه ﷺ مهما عظمت درجته وعلت رتبته فهو مخلوق لا يضرُّ ولا ينفع من دون الله إلا بإذنه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

مقام الخالق ومقام المخلوق

إن الفرق بين مقام الخالق والمخلوق هو الحدُّ الفاصل بين الكفر والإيمان، ونعتقدُ أن من خلط بين المقامين فقد كفر والعياذ بالله.

ولكل مقام حقوقه الخاصة، ولكن هناك أمور ترد في هذا الباب وخصوصاً فيما يتعلق بالنبي ﷺ وخصائصه التي تميزه عن غيره من البشر وترفعه عليهم، هذه الأمور قد تشتبه على بعض الناس لقصر عقلهم وضعف تفكيرهم وضيق نظرهم وسوء فهمهم، فيبادرون إلى الحكم بالكفر على أصحابها وإخراجهم عن دائرة الإسلام ظناً منهم أن في ذلك تخليطاً بين مقام الخالق ومقام المخلوق ورفعاً لمقام النبي ﷺ إلى مقام الألوهية وإننا نبرأ إلى الله تعالى من ذلك وإننا بفضل الله تعالى نعرف ما يجب لله تعالى وما يجب لرسوله ﷺ ونعرف ما هو محض حقّ الله تعالى وما هو محض حقّ لرسوله ﷺ من غير غلوّ أو إطراء يصل إلى حدّ وصفه بخصائص الربوبية والألوهية في المنع

والعَطاءِ والنَّفع والضر الاستقلالي [دون الله تعالى] والسُّلطَة الكاملَة والهَيْمَنة الشاملة والخلق والملك والتدبير والتفرُّد بالكمال والجلال، والتَّقديس والتفرد بالعبادة بمختلف أنواعها وأحوالها ومراتبها.

أما الغلو الذي يعني التَّغالي في محبَّته وطاعته والتعلُّق به، فهذا محبوب ومطلوب كما جاء في الحديث: «لا تُطْروني كما أطْرت النصارى ابن مريم». والمعنى أن اطْرَاءه والتَّغالي فيه والثناء عليه بما سوى ذلك هو محمود ولو كان معناه غيرُ ذلك لكان المُراد هو النَّهي عن إطرائه ومَدْحه أصلاً ومعلومٌ أن هذا لا يقوله أجهل جاهل من المسلمين، فإن الله تعالى عظَّم النبي ﷺ في القرآن العظيم بأعلى أنواع التَّعظيم، فيجبُ علينا أن نُعظِّم مَن عَظَّمه الله تعالى وأمَرَ بتعظيمه، نعَم يجب علينا أن لا نصِفُه بشيءٍ من صفاتِ الرُّبوبيَّة، ورَحِم الله القائل حيث قال:

دَعْ ما ادّعتْه النصارى في نبيهمِ واحكم بما شئتَ مَدْحاً فيه واحتكِمِ

فليس في تعظيمه ﷺ بغير صفات الرُّبوبية شيء من الكفر والإشراك بل ذلك من أعظم الطاعات والقُربات، وهكذا كل من عظَّمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكالملائكة والصديقين والشهداء والصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

ومن ذلك الكعبة المُعظمة والحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام فإنها أحجار وأمرنا الله تعالى بتعظيمها بالطواف بالبيت ومسّ الرُّكن اليماني، وتقبيل الحجر الأسود، وبالصلاة خلف المقام، وبالوقوف للدعاء عند المُستجار وباب الكعبة والمُلتزم، ونحن في ذلك كله لم نعبد إلا الله تعالى ولم نَعتقدْ تأثيراً لغيره ولا نفعاً ولا

ضراً، فلا يثبت شيء من ذلك لأحد سوى الله تعالى.

والحاصل أن هنا أمرين عظيمين لا بد من ملاحظتهما أحدهما: وجوب تعظيم النبيّ ﷺ ورفع رتبته عن سائر الخلق، والثاني: إفراد الربوبية واعتقاد أن الربّ تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه، فمن اعتقد في مخلوق مشاركة الباري سبحانه وتعالى في شيء من ذلك فقد أشرك كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام واستحقاقها العبادة، ومن قصر بالرسول ﷺ عن شيء من مرتبته فقد عصى أو كفر.

وأما من بالغ في تعظيمه بأنواع التعظيم ولم يصفه بشيء من صفات الباري عز وجل فقد أصاب الحقّ وحافظ على جانب الرُّبوبية والرسالة جميعاً، وذلك هو القول الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، وإذا وُجد في كلام المؤمن إسناد شيء لغير الله تعالى يجب حمله على المَجاز العقلي ولا سبيل إلى تكفيرهم، إذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسُّنّة فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقليّ لأنها سبب في الزيادة والذي يزيد حقيقة هو الله تعالى وحده، وقوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]. فإسناد الجعل إلى اليوم مجاز عقليّ، لأن اليوم محل جعلهم شيباً، فالجعل المذكور واقع في اليوم، والجاعل حقيقة هو الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣ ـ ٢٤]. فإسناد الأضلال إلى الأصنام مجاز عقلي لأنها سبب في حصول الإضلال والهادي والمُضلّ هو الله تعالى وحده، وقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦]. فإسناد البناء إلى هامان مجاز عقلي لأنه سبب فهو آمر يأمر ولا يبني

بنفسه والباني إنما هو الفَعلة من العُمَّال وأما الأحاديث ففيها شيء كثير يعرفه من وقف عليها، وكان ممن يعرف الفرق بين الإسناد الحقيقي والمجازي فلا حاجة إلى الإطالة بنقلها، وقال العلماء: إن صدور ذلك الإسناد من موحد كاف في جعله إسناداً مجازياً لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أن الخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده فهو الخالق للعباد وأفعالهم لا تأثير لأحد سواه لا لحيّ ولا لميت فهذا الاعتقاد هو التوحيد المَحْض، بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك.

* * * * *

معنى الإيمان بالله

أما الإيمان بالله تعالى فهو على قسمين: «قسم» في سلب صفات النقص عن ذاته المُقدَّسة. و«قسم» في إثبات صفات الكمال لها.

«القسم الأول» في تنزيه الباري تعالى عن الكَيْف والزَّمان والمكان ومُشابهة ما تُصُوِّر في البال، وعن الشَّبيه والشَّريك، والولَد والوالد والصاحبة وعن العرَض والجسم والجوهر، وعن كل نقص مطلقاً.

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في تنزيه الباري تعالى:

كل من خطَر بباله أن الله تعالى جِسْم مُركَّب فهو عابد صنم، فإنّ كل جسم حادِث مخلوق، وعبادة الحادث المَخلوق كُفر، وعبادة الصنم إنما كانت كُفراً لكونه مخلوقاً، وإنما كان مُخلوقاً لكونه جسماً، ومَن عبد جسماً فهو كافر بالإجماع صغيراً كان ذلك الجسم كالذرّة أو كبيراً كالفرَس، جماداً كالحجارة أو حيواناً كالإنسان، لطيفاً كان كالهواء والماء. أو كثيفاً كالتراب، مشرِقاً كان كالشمس والنجوم أو مُظلِماً كالأرض.

قال: وأما ما ورد في الكتاب والسُّنّة من الألفاظ المُشكِلَة المُوْهِمَة بظواهرها اتِّصاف الباري تعالى بما هو من سمات الحدوث والجِسْميّة وتوابعها، كالاستواء والمجيء والنزول، واليد والقدم، والصورة ونحو ذلك فيجب عند سماعها أمور:

«أحدها» تنزيه الباري تعالى عن الجِسْميّة وتوابعها.

«ثانيها» التصديق بها، وهو أن يعتقد قطعاً أن هذه الألفاظ أُريد بها معنى يليق بجلال الله وعظَمتِه، وأن ما وَصف الله به نفسه ووصفه به

رسله صَدَق وحقّ على الوجه الذي قاله، والمعنى الذي أراده.

«ثالثها» الاعتراف بالعَجْز على كل مَنْ لم يقف على كُنْه هذه المعاني وحقيقتها، ولم يَعرف تأويلها، مع اعتقاد أن ما خَفِيَ عليه من معاني هذه الظواهر وانطوى عنه من أسرارها ليس مُنْطَوياً عن الرسول، ولا عن الصديق، وأكابر الصحابة والأولياء والعلماء الرّاسخين في العلم. وأنه إنما انطوى عنه لعَجْزه وقُصور قوّته، فلا ينبغي أن يقيس بنفسه غيرَه.

«رابعها» الإمساك عن التصرف في تلك الألفاظ بتفسير أو تَصْريف أو تفريغ فلا يُبدّل شيء من ذلك بلفظ آخر، ولا يُترجم بلغة أخرى ولو أدّت معناه بل يَقتصر على إيراد اللفظ الوارِد بصيغته كما وَرَد.

ولأجل ذلك بالغ السلف في الجُمود والاقتصار على موارد التوقيف كما وَرَد على الوجه الذي ورد باللّفظ الذي ورد.

والحقُّ ما قالوه، إذ أحقُّ المواضع بالاحتياط ما هو تصرُّف في ذات الله وصفاته. وأحقُّ الأعضاء بإلجامه وتقييده اللسان عن الإطلاق فيما يَعْظُم فيه الخَطَر، وأي خطَر أعظم من الكفر.

«القسم الثاني» في إثبات صفات الكمال للباري تعالى كالحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، وغير ذلك من صفات الكمال.

كيف وقد ثبتت له بتواتر النقل كما وصف نفسه بها، ووصفه بها رُسُله فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾

[الأنعام: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

ثم اعلم أن علم الباري سبحانه وتعالى متعلق بجميع الجائزات والواجبات والمُسْتحيلات مما كان ومما سيكون، ومما لا يكون لو كان كيف يكون، كما في ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣].

وسمعه وبصره مُتعلِّقان بجميع الموجودات قديمها وحديثها سواء كانت من قبيل الأصوات والمَرْئيات أو غيرهما، فلا يَعزُب عن سمعه وبصره شيء، وليس ذلك على ما يُفهم من صفات المخلوقين، بل كما هو فاعل بلا جارحة فهو عالم بلا قلب، بصير بلا حَدَقة وأجفان، سميع بلا أَصمخة وآذان، إذ كل ذلك من صفات خلقه التي أجراها فيهم بحسب العادة، ولو شاء أن يجعل العُيون سامِعَة، والآذان مُبْصِرة وغير ذلك لَفعل، فهو على كل شيء قدير، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وكذلك لا يدخل التَّعْقيب والتَّرْتيب على صفاته سبحانه، فلا يقال: إنه عَلِم شيئاً بعد أن لم يَعلَمهُ ولا أنه نَظَر إلى شيءٍ بعد أن لم ينظُر إليه، ولا سَمِع شيئاً بعد أن لم يَسْمعه، إذ كل ذلك من لوازم صفات الخَلْق، وهو مُبايِن لخلقه بصفاته كما باينهم بذاته.

وقُدرته وإرادته تعالى تتعلقان بجميع المُمْكنات، ولكن القُدرة تُؤثّر في إيجاد الشيء وإعدامه. والإرادة تخصِّص الأشياء بأوقاتها وصفاتها المخصوصة بها، والقدرة فرع الإرادة، فإذا أراد الله شيئاً أوجده بقدرته، والإرادة فرع العلم إذ لا يريد الله تعالى إلا ما سبق به عِلمه القديم من إيجاد وإعدام.

* * * * *

الإيمان بالملائكة

وأما الإيمان بالملائكة عليهم السلام فالمراد بذلك «الإيمان» بأنهم الوسائط بين الله وبين رسله إلى البشر في إنزال كتبه، وتبليغ نهيه وأمره. فهم رسل الله إلى رسله، ومن لم يؤمن بهم كذلك فقد كفر بكتب الله ورسله.

فالإيمان بهم مُقدَّم على الإيمان بالكتب والرسل، ولهذا جاء ذكرهم مُقدَّمين عليهما في القرآن والحديث.

ويجب الإيمان أيضاً بأنهم عباد مُكْرَمون، مَعْصومون عن المعصية، مَطبُوعون على الطاعة، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ولا يُحْصي عددهم إلا الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وثبت في صحيح مسلم في حديث الإسراء به ﷺ أنه قال: «فإذا أنا بإبراهيم مُسْنِداً ظهره إلى البيت المَعْمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلك لا يعودون إليه».

روى الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني أرى ما لا تَرون وأسمعُ ما لا تسمعون أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تَئِط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه مَلَك واضعٌ جبهته ساجداً».

قال الإمام الجليل الحضرمي[1]:

---

(١) هو محمد بن إسماعيل بن علي الحضرمي في كتابه «المرتضى في مختصر شعب الإيمان» للبيهقي.

«اعلم - رحمك الله - أن الإيمان بالملائكة واجب كالإيمان بالرسل، فالجاحد للملائكة كافر لا يقبل الله إيمانه، لأنه مُكذّب بكتب الله ورسله. وعددهم لا يحصيه إلا الله تبارك وتعالى، فإن المُلك والملكوت كله مَعمور بهم. فمنهم ملائكة مُوكّلون بالأرض، ومنهم الموكّلون بالجبال، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن ملك الجبال ناداو وقال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين» ومنهم ملائكة موكلون بالنّجوم ومنهم الذين يبلّغونه ﷺ صلاة من يصلي عليه، ومنهم سُكّان السماوات السبع، وصفهم ﷺ ليلة الإسراء به. ومنهم خزنة الجنة وخزنة النار، ومنهم حملة العرش ومنهم الموكّلون بالسُحُب، ومنهم الموكّلون بالمطر حتى رُوِيَ أنه لا ينزل قطرة من السماء إلا ومعها ملك، ومنهم الموكلون بالأرحام وخلق النُطف ونفخ الرّوح في الأجساد، ومنهم الموكلون بخلق النبات وتصريف الرياح والأفلاك والنجوم، ومنهم الحفظة على الأعمال، ومنهم الموكّلون بحفظ بني آدم يحفظونه من أمر الله أي بأمر الله.

وعلى الجملة فهم عُمّار المُلك كله، حتى أنه ليس في العالم شبر إلا وهو معمور بهم ومشحون من أسفله إلى أعلاه، ولذلك أمر النبي ﷺ ألاّ نستقبل القبلة ولا نستدبرها ببول ولا غائط، إكراماً للمصلين منهم إليها، والإيمان واجب بجميعهم واعلم أن الملائكة على اختلاف طبقاتهم روحانيون، ولسنا نعلم كيف هيئتهم التي خُلقوا عليها، بل لا تُدرك بأعين البصر الظاهر، ولكنهم قد جعل الله لهم قوة التمثّل في صور مختلفة، كما أتى جبريل النبي ﷺ غالباً في صورة دحية الكلبي، ورآه مرة قد سدّ الأفق بجناحيه. وقال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]. قال المحقّقون: وليس ما يتمثّلون به من هذه الصور عين حقائقهم. فإن حقائق خلقتهم الأصلية أرواح

لطيفة تصل إلى القلوب وتجري مَجرى الدم، وتدخل في الثَّرى، وتُرى ولا تُرى، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] أي لأن حَواسّكم لا تُدرك هيئة الملائكة إلا بالتشكيل في الصورة المحسوسة. وقال الله تعالى في إبليس: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أي قبيلته وهم الجن ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] أي إنكم لا تدركون هيئاتهم، لأن الجن أيضاً أرواح، إلا أن الملائكة من نور والجن من نار. والله أعلم.

* * * * *

الإيمان بالكتب

وأما الإيمان بكتب الله تعالى فيجب الإيمان بها إجمالاً وتفصيلاً.

أما الإجمال فكما قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] - أي القرآن - ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ والظاهر أنها صحف إبراهيم. وهؤلاء هم آل إبراهيم ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [البقرة: ١٣٦] أي التوراة والإنجيل وصحف موسى أيضاً.

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسول الله كم كتاباً أنزل الله تعالى؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شِيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف. وأنزل التوراة والإنجيل والزَّبور والفُرقان». قلتُ: فكم الأنبياء؟ قال: «ألف نبي وأربعة وعشرون نبياً»، قلتُ: وكم الرسل من ذلك؟ «ثلاثمائة وثلاثة عشر»، قلتُ: من كان أولهم؟ قال: «آدم»، قلتُ: فما كانت صُحف موسى؟ قال: «كانت عِبَراً كلها: عجبتُ لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو يَنْصَب، عجبتُ لمن رأى الدُنيا وتقلُّبها بأهلها ثم اطمأن إليها، عجبت

لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل». رواه ابن حبان في صحيحه.

ويُغني عن ذلك كله الإيمان بالقرآن العظيم تفصيلاً بجميع سوره وآياته وكلماته وحروفه.

* * * * *

الإيمان بالرسل عليهم السلام

أما الإيمان بالرسل فذلك واجب. لا يقبل الله إيمان عبد شهد له بالتوحيد حتى يؤمن بالرسل، ويشهد لهم بالرسالة. ومن لم يفعل ذلك، أو آمن ببعض دون بعض فهو كافر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

فيجب الإيمان بهم إجمالاً، بمن ذكرهم الله تعالى في القرآن بأعيانهم تعييناً كآدم وإدريس ونوح، وهود وصالح وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب ويوسف ولوط وأيوب وشعيب، وموسى وهارون، ويونس، وداود وسليمان، وزكريا ويحيى، وعيسى وإلياس، واليسع وذي الكفل، ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين. قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾ [النساء: ١٦٤] فمن كذب واحداً منهم فقد كذب جميعهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥١]. وقال ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٢٣ ـ ١٤١ ـ ١٧٦].

ولم تكذب كل أمة إلا رسولها فقط. لكن يلزم من تكذيب الواحد تكذيب الكل، لأنهم كلهم مصدقون بعضهم بعضاً، ويغني عن ذلك كله التصديق بمحمد ﷺ في كل ما جاء به.

* * * * *

الإيمان باليوم الآخر

وأما الإيمان باليوم الآخر: فالمراد به يوم القيامة، وذلك بعث الأجساد والأرواح وحشرها إلى الموقف للحساب، والميزان والصراط والجنة والنار.

وأول مَنزل من منازل الآخرة القبر وما فيه من السؤال والفتنة والنعيم والعذاب ثم البعثُ بعد فَناء الخلق كلّهم، ثم الوزن، ثم الصراط، ثم الحَوْض ثم الدار: الجنة أو النار، ثم الرّؤية للأبرار في دار القَرار، والشفاعة بأنواعها، والإيمان بجميع ذلك واجب.

فتنة القبر

أما القبر فقد تواتر النقل عن النبي ﷺ أنه كان يَسْتعيذ من عذاب القبر وفِتْنته.

وعن عائشة رضي الله عنها قال: «سألتُ رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال: نعم عذاب القبر حَقّ، وما رأيتُ رسول الله ﷺ بعدُ يُصلي صلاة إلا استعاذ من عذاب القبر» رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ أحدكم إذا مات عُرِض عليه مَقْعده بالغَداة والعَشيّ: إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مَقْعَدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبدَ إذا وُضِع في قبره وتولّى عنه أصحابه، إنه لَيَسْمَع قَرْع نِعالهم قال يأتيه ملكان

فيقولان ما كنتَ تقول في هذا الرّجل فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبدُ الله ورسوله فيقال له: انظر إلى مَقْعَدك من النار قد أبْدَلك الله به مَقْعداً من الجنة فيراهما جميعاً. وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري كُنتُ أقول ما يقول النّاس فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ ثم يُضربُ بمطْرَقة من حَدِيد بينَ أُذنيه فيصيح صَيْحَة يسمعها من يليه غير الثَّقلين» رواه البخاري ومسلم. وروى مسلم: «لولا أخاف ألاَّ تدافنوا لَدَعوتُ الله أن يُسْمِعكم من عذاب القبر».

البعث

وأما البعث فقال الله تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يخطب على المنبر يقول: «يا أيها الناس إنكم تُحشَرون إلى الله حُفاة عُراة غُرْلاً» ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. رواه البخاري ومسلم. والغُرْل ـ بضم العين وإسكان الراء ـ جمع أغْرَل، وهو الأقْلَف الذي لم يُخْتَن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عَرَقهم في الأرض سبعين ذراعاً وأنه يلجمهم حتى يبلغ آذانهم» رواه البخاري ومسلم.

وزن الأعمال

وأما الوزن فقال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٞ شَيْـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٖ وَلَا

يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلتُ يا رسول الله، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة فقال: أمّا في ثلاثة مواضع فلا يذكر أحَدٌ أحداً: عندَ الميزان حتى يَعلَم أيخفُّ ميزانه أم يثقل. وعند تطايُر الصحف حتى يعلمَ أين يقعُ كتابه في يمينه أو شماله أو وراء ظهره. وعندَ الصراط إذا وُضِع بين ظهرانَي جهنم حتى يَجوزه» رواه أبو داود، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

الصراطُ على مَتْنِ جهنم

وأما الصراط فقال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوُرُود الدُّخول. لايبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بَرْداً وسلاماً ثم يُنجّي الله الذين اتقوا ويذَر الظالمين فيها جثياً» رواه الإمام أحمدُ والبيهقي بإسناد حسن.

وعن حُذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس ويُرسل الأمانة والرّحم فيقومان على جَنْبَتي الصراط يميناً وشمالاً فيمرُّ أولهم كالبرْق ثم كمَرّ الريح ثم كمرّ الطير ثم كشَدّ الرّجال - أي عَدْوِهم - تجري بهم أعْمالهم ونبيكم قائم على الصراط يقول يا رب سَلِّمْ سَلِّم حتى تعجز أعمال العبَاد حتى يجيء الرّجل فلا يستطيع السير إلّا زَحْفاً - قال - وفي حافتَي الصراط كلاليب مُعلّقة

مَأمورة من أُمِرَتْ به فمَخْدوش ناجٍ ومَكْدوش[١] في النار» رواه مسلم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «يُوضَعُ الصراط على جِسْرِ جهنم مِثل حَدِّ السيف المُرْهف مُدْحِضة مُزْلقة[٢] عليه كَلالِيب من نار» الحديث رواه الطبراني بإسناد حسن.

ظاهر النصوص يدل على أن الورود يَشْمَل الأنبياء والأولياء والصالحين وعامة المؤمنين.

والذي نراه أن هذه العمومات مَخْصوصة بأحاديث دُخول السابقين إلى الجنة بغير حساب وبقوله جل ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

ولا شك أن الأنبياء هم أول السابقين وهم ممن سبقت لهم الحُسْنى. وكما جاء في الحديث الصحيح «أن الصائم لا يَرى النار بل يُباعِد الله بينه وبينها مَسِيرة مائة عام».

الحوض

وأما الحوض فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١]. وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكِيزانه كنجوم السماء من شرب منه فلا يظمأ أبداً» رواه البخاري ومسلم.

---

(١) مخدوش: ممزق أو مقشور بعود ونحوه. ومكدوش مدفوع دفعاً عنيفاً.

(٢) مدحضة: مكان الدّحض أي الزلق. والمدحضة المزلة.

والمزلقة: مكان الزلق، والوصف للتأكيد.

الجنة والنار

وأما الجنة والنار فقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ويؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها» رواه مسلم وغيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من جهنم» رواه البخاري ومسلم.

وعنه أيضاً قال: كنا عند النبي ﷺ فسمعنا وَجْبة فقال ﷺ: «أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر أرسله الله في جهنم منذ سبعين خريفاً فالآن انتهى إلى قعرها» رواه مسلم.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ أهوَن أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل على أخمَص قدميه جمرتان يَغلي منهما دِماغه كما يَغلي المِرْجل» رواه البخاري ومسلم. ولفظه: «إنّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة من له نعلان وشِراكان من نار يَغلي منهما دِماغه كما يَغلي المرجل ما يُرَى أن أحداً أشدّ عذاباً منه وإنه لأهونهم عذاباً».

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُؤتى بأنعَم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصبَغ في النار صَبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيتَ نعيماً قط هل مَرّ بك خير قط فيقول لا يا ربّ، ويُؤتى بأشَدّ

الناس بُؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيُصْبغ صَبْغة في الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيتَ بُؤساً قطّ هل مَرّتَ بك شِدّة قط فيقول لا واللهِ يا ربّ» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول زُمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر على صورة رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء، لا يبولون ولا يَتَغوّطون ولا يبصقون فيها ولا يَمتَخطون، آنيتهم فيها الذهب وأمشاطهم من الذهب والفضة ومَجامِرُهم الألوّة ورَشْحُهم المِسْك ولكل واحد منهم زوجتان يُرَى مخُّ سُوقهما من وراء اللحم من الحُسن لا اختلاف بينهم ولا تَباغُض. قلوبهم قلبُ رجل واحد يُسبّحون الله بُكرة وعَشِيّاً» رواه البخاري ومسلم. والألوّة - بفتح الهمزة وضمها وضم اللام وتشديد الواو المفتوحة - من أسماء العُود الذي يُتَبخَّر به.

وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليَتَراءَوْن أهل الغُرَف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّرّي لِتفاضُل ما بينهم قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا وصَدّقوا المرسلين» رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخَيْمة من لُؤلؤة واحدة مُجَوّفة طولها في السماء ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم فلا يرى بعضهم بعضاً» رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لَشجرة يَسير الراكب في ظِلّها مائة عام لا يقطعها. وإن شئتم فاقرءوا ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾» [الواقعة: ٣٠ - ٣١]. رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾» [السجدة: ١٧]. رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو طلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولأضاءت ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها». رواه البخاري ومسلم. والنَّصِيف: الخِمار.

رؤية الله تعالى يوم الآخرة

وأما الرُّؤيةُ فقال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال أئمة التفسير: الحسنى: الجنة. والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم. وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن أُناساً قالوا: «يا رسول الله هل نَرَى ربنا يوم القيامة؟ قال: نعم هل تُضارّون في رُؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا. قال: هل تُضارّون في رُؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك...» فذكر الحديث بطوله. رواه البخاري ومسلم.

وعن صُهَيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله عز وجل: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّض وُجوهَنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب. فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا هذه

الآية: «﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾» [يونس: ٢٦]. رواه مسلم.

الشفاعة يوم القيامة

وأما الشفاعة فهي أربعة أقسام: (الأولى) في الاستراحة من هول الموقف وتعجيل فصل القضاء وذلك المقام المحمود الموعود به نبينا محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

(والثانية) في قوم استوجبوا النار فيُشفِّع الله فيهم مَن أكرمه من عباده النبيين والصديقين والعلماء والشهداء والصالحين. فيدخلون الجنة برحمة الله.

(والثالثة) في إخراج قوم من المُوَحّدين من النار، فيُشَفِّع الله فيهم من يشاء من عباده حتى لا يبقى في النار من في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان.

(والرابع) في زيادة الدرجات لأقوام قَصُرت أعمالهم عن اللَحاق بأهلهم فيُلحقُ الله بهم ذرّياتهم وغيرهم. وكل ذلك قد وردت فيه النُصوص الصّريحة والأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ماجَ الناس بعضهم بعضاً فيأتون آدم فيقولون اشفع لذُرّيتك فيقول: لستُ لها ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليلُ الله، فيأتون إبراهيم فيقول: لستُ لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيأتون موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى فإنه رُوح وكلِمته، فيأتون عيسى فيقولُ: لستُ لها ولكن عليكم بمحمد فإنه حبيبُ الله، فيأتوني فأقول: أنا لها..» الحديثَ رواه البخاري ومسلم مُطوّلاً.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبيّ دعوة قد دعا بها فاستُجيب له وأنا اختبأتُ دعْوَتي شفاعة لأمتي يوم القيامة».

رواه البخاري ومسلم.

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشفعُ لأمتي حتى يُنادي ربيّ تعالى فيقول: قد رَضيتَ يا محمد؟ فأقول: أي يارب قد رضيتُ» رواه الطبراني وإسناده حسن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تُوضَع للأنبياء منابر من نور يجلسون عليها ويبقى مِنبَري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي مخافةَ أن يبعثني إلى الجنة وَتبقى أمتي بعدي فأقول: يا ربِّ أمتي فيقول عزّ وجلّ: يا محمّد ما تُريد أن أصْنعَ بأمتك فأقول: يا رب عجّلْ حسابهم فيدعوهم ربهم فيحاسبون فمنهم من يدخل الجنة برَحْمَة الله ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي، فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكاً برجال قد بعثهم إلى النار حتى أن مالكاً خازن النار ليقول: يا محمد ما تركتَ لِغضبِ ربكَ في أمتك من نِقْمَة» رواه الطبراني والبيهقي بإسناد غير متروك. والصِكاك جمع صَكّ وهو الكتاب.

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل لَيَشْفَعِ في الرجلَين والثلاثة» رواه الترمذي برواة الصحيح.

وعن أبي أسامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَيدخُلَنّ الجنة بشفاعةِ رجل من أمتي مثل ربيعة ومُضَر» رواه الإمام أحمد بإسناد جيد.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُشَفَّع الله تعالى آدم عليه السلام يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف» رواه الطبراني.

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول إبراهيم يوم القيامة: يا ربّاه فيقول الرب: لبَيكاه فيقول إبراهيم: يا رب حَرَقْتَ ذُرّيتي بالنّار فيقول الرب تعالى: أخرجوا من النار من في قلبه مِثْقال ذرّة أو شَعيرة من الإيمان» رواه ابن حبّان في صحيحه.

* * * * *

الصلاة

وأما الصلاة فالمراد من العلم بها اعتقاد أن الله فرض على عباده خمس صلوات في كل يوم وليلة: هن الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والصبح. قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣] أي فرضاً مؤقتاً بالأوقات المخصوصة وقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨] أي فسبحوا حين تُمْسون، والتسبيح ههنا الصلاة: والمساء يشمل المغرب والعشاء، وحين تُصْبحون: صلاة الصبح، وعَشياً: العصر، وحين تُظهرون: الظهر. وقال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي أقم الصلاة من دُلُوك الشمس، وهو زوالها، إلى غسق الليل، وهو اشتداد ظُلْمته، أيْ أن هذا الوقت كله وقت إقامة الصلاة من غير فاصل، ويشمل ذلك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم قال: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ سُمّي صلاة الفجر قرآناً لاختصاصها بطول القراءة فيها، أي وَصلِّ صلاة الفجر.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْت أن أُقاتِل الناس حتى يَشْهَدُوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عَصَموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّ الإسلام وحسابهم على الله» رواه البخاري ومسلم، وقال ﷺ: «فرض الله على أمتي ليلة الإسراء خمسين صلاة، فلم أزل

أُراجعْه وأسأله التّخْفيف حتى جعَلها خمساً في كل يوم وليلة» وقال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «أخبِرْهُم أنّ الله تعالى فَرَض عليهم خمس صلوات في كُلّ يوْم وليلة» رواهما البخاري ومسلم.

مَكانَة الصلاة في الدِّين

اعلم أن الصَّلاة عماد الدين، وأَجَلّ مَباني الإسلام الخمس بعد الشهادتَين ومَحلّها من الدِين مَحلّ الرأس من الجسد، فكما أنه لا حياة لمن لا رأس له فكذلك لا دين لمَن لا صلاة له، كذلك ورد في الأخبار، جعلَنا الله وإياكم مِن المُحافظين على الصَّلاة، المُقيمين لها، الخاشعين فيها، الدائمين عليها - فبذلك أمر الله عباده المؤمنين في كتابه، وبه وصفهم فقال عز من قائل: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالصلوات هي المكتوبات الخمس: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والصبح فتلك هي الصَّلوات التي لا يَسَعُ أحداً من المسلمين ترْك شيء منها في حال من الأحوال ما دام يَعقِل، ولو بَلَغ به العجز والمرض إلى أقصى غاياته، والصلاة الوسطى: هي العصر كما ورد به الحديث الصحيح خصّها الله بالذكر لزيادة الفضل والشرف، وذلك معروف ومشهور في الإسلام، حتى بلغنا في سبب نزول الرّخصة في صلاة الخوف أن المسّلمين كانوا مع رسول الله ﷺ في بعض الغزَوات، فصلى بهم عليه السلام صلاة الظهر على الوجه المَعْهود، وكان المشركون قريباً منهم يرَونهم فلما فرَغوا من صلاتهم قال بعض المشركين: لو أغرْتم عليهم وهم في صلاتهم لأصبْتُموهم فقال بقيّة المشركين: إن لهم بعد هذه الصَّلاة صَلاة هي أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم - يعنون العصرَ - فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بصلاة الخوف. فانظر كيف صار فضْلُ هذه الصلاة - أعني العصر - مَعلوماً حتى للمشركين.

وقال تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣١] فالإنابة هي الرّجوع إلى الله، والتقوى هي الخشْية من الله، والإقامة للصّلاة هي الإتيان بها على الوجه الذي أمر الله به.

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢] إلى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩] وقال تعالى: ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج: ٢٢ ـ ٢٣] فاستثناهم من نوع الإنسان المخلوق على الهَلع والجزَع عن مَسِّ الشرّ له، والمَنع عند مسّ الخير له، كأنه سبحانه يقول: إن المصلّين على الحقيقة ليسوا ممن يَهْلع ويَجزَع ويَمْنَع «قلتُ» لأن هذه الأوصاف من المُنْكَر، وقد قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالمصّلي المقيم للصلاة كما أمر الله ورسوله تنهاه صلاته عن فعل ما يكرهه الله منه مثل هذه الصفات المَذكورة وغيرها من المَكاره.

وقال عليه الصلاة والسلام: «صلّوا كما رأيتموني أصلي» فالمصلي على الإتّباع والاقتداء برسول الله ﷺ في صلاته على الوجه الذي نَقلَتْه علماء الأمة من السّلَف والخَلَف رضي الله عنهم: هو المصلي المَعْدود عند الله من المقيمين للصلاة والمحافظين عليها.

للصلاة صورة ظاهرة وحقيقة باطنة

ثم إن للصلاة صورة ظاهرة وحقيقة باطنة. لا كَمال للصلاة ولا تمام لها إلا بإقامتهما جميعاً، فأما صورتها الظاهرة فهي القيام، والقراءة والركوع، والسجود، ونحو ذلك من وظائف الصلاة الظاهرة.

وأما حقيقتها الباطنة: فمثل الخُشوع، وحُضور القلب وكَمال الإخلاص، والتدبر والتفهم لمعاني القراءة، والتسبيح ونحو ذلك من وظائف الصلاة الباطنة.

ظاهر الصلاة: حفظ البدن والجوارح. وباطن الصلاة: حفظ القلب والسّر وذلك مَحَل نَظَر الحَقّ من العبد - أعني قلبه وسِرّه.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: مَثل الذي يقيم صورة الصلاة الظاهرة ويَغفُل عن حقيقتها الباطنة كمثل الذي يُهدي لمَلِك عظيم وَصِيفَةً ميّتة لا روح فيها.

ومثل الذي يقصِّر في إقامة ظاهر الصلاة، كمثل الذي يُهدي إلى الملك وَصِيفة مَقطوعة الأطراف، مَفْقوءَة العينَين، فهو والذي قبله مُتعرِّضان من المَلِك بهديّتهما للعقاب والنّكال لاستهانتهما بالحُرْمة، واستخفافهما بحق المَلِك.

ثم قال: فأنتَ تُهدي صَلاتك إلى ربك، فإياك أن تُهديها بهذه الصفة فتستوجبُ العُقوبة. انتهى بمعناه.

بعض أحوال السلف في الخشوع

وقد بلغ الخشوع في الصلاة برجال من السلف الصالح مَبْلَغاً عجيباً، فمن ذلك أن أحدهم كان يُقع عليه الطير وهو قائم في الصلاة أو ساجد يحسب أنه حائط أو جماد من شدة هدوئه وطول قيامه وسجوده، وسقطت في جامع البَصْرة أسطوانة فانزعج لسقوطها أهل السوق، وكان بعضهم يصلي في المسجد فلم يشعر بها من شدة استغراقه في صلاته، وكان بعضهم يقول لأهله وأولاده: إذا دخلتُ في الصلاة فافعلوا ما بدا لكم - يعني من رَفع الأصوات وكثرة اللغط - فإني لا أُحسُّ بكم، فكانوا ربما يَضربون بالدُّف عنده فلا يشعر به.

واحترق بيت عليّ بن الحُسين رضي الله عنهما بالنار وهو ساجد، فجعلوا يصيحون عليه: النارَ النارَ يا ابن رسول الله، فلم يرفع رأسه، فلما فرغ من صلاته قيل له في ذلك فقال: ألهتني عنها نار الآخرة.

وقيل لبعضهم: هل تجد في صلاتك ما نجده من وساوس الدنيا؟ فقال: لأن تختلف فيّ الأسنّة أحبُّ إليّ من ذلك. وقيل لآخر: هل تحدّث نفسك في الصلاة بشيء؟ فقال: وهل شيء أحبّ إليّ من الصلاة حتى أحدّث نفسي به فيها. وجاء السارق فسرق فرس الربيع بن خيثم وهو في الصلاة، فجعل الناس يدعون عليه فقال الربيع: لقد رأيته حين أطلقه. فقالوا: لو طلبته فأخذته منه؟ فقال: كانت صلاتي أحبّ إليّ من الفرس، وهو منه في حلّ، وصلّى بعض أصحاب رسول الله ﷺ في حائط نخل له، فجعلت الطير تطير من شجرة إلى شجرة وجعل ينظر إليها فألهاه ذلك عن شيء من صلاته فلما عرف ذلك من نفسه شق عليه فجعل ذلك الحائط كله في سبيل الله لما ألهاه عن صلاته.

حكم تارك الصلاة

ثم اعلم أن من أنكر المُنكرات وأكبر الكبائر وأفحش المُحرّمات ترْك بعض المسلمين الصلوات المكتوبات. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه الذمة» رواه ابن ماجه والبيهقي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك الصلاة مُتعمّداً لقيَ الله وهو عليه غضبان» رواه الطبراني وإسناده حسَن وفي رواية له عن أنس بن مالك: «من ترك الصلاة مُتعمداً فقد كفر جِهاراً».

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافَظ عليها كانت له نوراً وبرُهاناً ونَجاةً يوم القيامة، ومَن لم يُحافظ عليها لَم تكن له نُوراً ولا بُرهاناً ولا نَجاةً وكان يوم القيامة مَع فِرْعون وهامان وقارون وأُبيّ بن خَلَف لعنهم الله» رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه.

وعن بُرَيدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بين الرجل وبين والكُفْر ترك الصلاة» رواه مسلم وغيره.

وروى الترمذي: «كان أصحاب محمد ﷺ لا يَرون شيئاً من الأعمال تَرْكه كُفر غير الصلاة» وعن حَمّاد بن زيد عن أيوب قال: «ترك الصلاة كُفر لا يُختلف فيه» وعن إسحاق أن ذلك كان رأي أهل العلم من لَدُن النبي ﷺ.

وفي «التَّرْغيب والتَّرهيب» للمنذري عن ابن حَزْم أنه قد جاء عن عمر ابن الخطاب وعبدالرحمن بن عَوْف ومعاذ بن جَبَل وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أن مَن ترك صَلاةَ فرض مُتعمداً حتى يَخْرُج وقتها فهو كافر مُرْتدّ. ولا نعلم لِهؤلاء مخالفاً من الصحابة.

قال المُنْذري: وقد ذهب جَماعة من الصحابة ومَن بعدهم إلى تكفير مَن ترك الصلاة مُتعمِّداً حتى يخرج وقتها منهم عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس ومُعاذ وجابر وأبو الدّرداء. ومن غير الصحابة أحمد بن حنبل وإسحاق وابن المُبارك والنّخعي والحَكَم بن عُتيبة وغيرهم.

قال بعض السّلف: تارك الصلاة مَلعون في التوراة والإنجيل والزّبور والفرقان. تارك الصلاة ينزل عليه كل يوم وليلة ألف لَعنة، وألف سُخْط، والملائكة يَلْعنونه من فوق سبع سماوات.

(١) لعله: فرعون

تارك الصلاة ما له نصيب في الحوض، ولا في الشفاعة. تارك الصلاة لا يُعاد في مَرَضه، ولا يُتبع في جنازته ولا يُسلّم عليه، ولا يؤاكل ولا يُشارب، ولا يُصاحب ولا يُجالس، ولا دِين له، ولا أمانة له، ولا حظ له في رحمة الله، وهو مع المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار.

تارك الصلاة يُضاعف له العذاب ضعفين، ويأتي يوم القيامة وقد غُلَّت يداه إلى عنقه والملائكة يضربونه، وتفتح له جهنم، فيدخل في بابها كالسهم فيهوي على رأسه عند قارون وهارون وهامان في الدرك الأسفل في النار.

تارك الصلاة إذا رُفعَت اللقمة إلى فيه قالت له: لَعَنك الله يا عدوّ الله تأكل رزق الله ولا تؤدي فرائضه.

قاطع الصلاة يَتبرأ منه الثوب الذي على جَسَده ويقول له: لولا أن سَخّرني ربي لك لفررتُ منك.

قاطع الصلاة إذا خرج من بيته قال البيت: لا صَحِبك الله في سَفَرك ولا خَلفَك في أثرك، ولا أعادك إلى أهلك سالماً. قاطِعُ الصلاة مَلْعون في حياته وبعد مماته. قاطع الصلاة يموت يهودياً ويُبْعث نصرانياً.

وأكثر هذه العُقوبات في حقّ تارك الصلاة جُحوداً وعِناداً.

*****

الــزكــاة

الزكاة أحد مَباني الإسلام الخَمْس، وقد جَمَع الله بينها وبين الصلاة في كتابه العزيز فقال عزَّ من قائل: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقال تعالى في وَصْف عباده المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٣ ـ ٤]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال رسول الله ﷺ: «من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيُؤَدِّ زكاة ماله» فأفهم عليه الصلاة والسلام أن من لم يُؤَدِّ الزكاة فليس بمؤمن.

واعلمْ أن من صلى وصام وحجّ ولم يُزَكِّ ماله لم يَقْبل الله له صلاة ولا صياماً ولا حَجاً حتى يُخرِجَ الزكاة وذلك لأن هذه الأشياء مُرْتَبِط بعضها ببعض لا يَقْبَل الله من عَمِل ببعضها حتى يعمل بها كلها، كما وَرَد ذلك في بعض الآثار عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أُمِرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يُزَكِّ فلا صلاة له. رواه الطبراني والأَصْبهاني وفي رواية للأَصْبَهاني قال: «من أقام الصلاة ولم يُزَكِّ فليس بمسْلم ينْفعه عمله».

فضل الزكاة

وللمُزَكِّي في إخراج الزكاة ثواب عظيم وأجر كريم، وله فيه منافع وفوائد دينية ودنيوية. وفي المال بلايا وفتن وآفات يُسلم منها المُحافظ على إخراج الزكاة إن شاء الله تعالى. وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا أدّيتَ زكاة مالك طيّبة بها نفسك فقد أذهبتَ عنك شرّه» وكذلك لا يُعرض للمال المزكّي شيء من المتالف والمهالك، لقوله عليه الصلاة والسلام: «وما هلكَ مالٌ في بَحْر ولا برٍّ إلا بحبس الزكاة» وقال عليه الصلاة والسلام: «حَصِّنوا أموالكم بالزكاة. وداوُوا مرضاكم بالصدقة» فالمال المُزكّى مُحصّن ومحفوظ في حرز الله، لأنه طيّب مُبارك والمال الذي ليس بمُزكّى ضائع، لأنه خبيث وغير مُبارك.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما خالطَت الزكاة مالاً إلا مَحقَته» وأيّ خير وأي نفع في المال المَمْحوق الذي قد مُحِقت بركتُه وبقيَ شره وفتنته.

«والمَحْق في الظاهر» هو ذهاب صورة المال ورجوع الإنسان بعد الاستغناء فقيراً هلوعاً جزوعاً، مُتبرّماً بقضاء الله. وقد وقع ذلك لخلق كثير من المتساهلين بأمر الزكاة. ومن المَحْق «مَحْق باطن» وهو أن يكون المال في الصورة موجوداً وكثيراً، لكن لا ينتفع به صاحبه، لا في دينه بالإنفاق وبذل المعروف، ولا في نفسه ومروءته بالستر والصيانة، ومع ذلك يتضرّر به تضرُّراً كثيراً بإمساكه عن حقه ووضعه في غير وجهه إما بإنفاقه في المعاصي والعياذ بالله، وإما في الشهوات البَهيمية التي لا نَفع لها ولا حاصل لها.

منع الزكاة من أكبر الكبائر

أما منع الزكاة فهو من أكبر الكبائر. وقد وردت فيه عن الله ورسوله

تَشْدِيدَاتٍ هَائِلَة، وتَهْدِيدَاتٍ عظيمة. ويُخْشَى على مانعِ الزكاة من سوءِ الخاتمة والخروج من الدنيا على غير ملّة الإسلام. وقد يُعاقب قبل الموت كما وقع ذلك لقارون من بني إسرائيل حين منع الزكاة، قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

وقد ورد أن المال الذي لا يُزكّى يتمثّل لصاحبه في موقف القيامة حيّة عظيمة فطوّق بها عُنقه، قال الله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يُؤدّي منها حقّها إلا إذا كان يوم القيامة صُفّحت له صفائح من نار فأُحمي عليها من نار جهنم فيُكوى بها جَنْبه وجبينه وظهره، كلّما بَرَدت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» الحديث بطوله. وفيه أن صاحب الماشية التي لا يُخرج زكاتها تأتيه يوم القيامة أوْفر ما كانت، فتطؤه بأخفافِها وأظلافِها، وتعضّه بأفواهها وتنطحه بقرونها.

أسرار الزكاة

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في أسرار الزكاة: «اعلم أن إنفاق المال في الخيرات أحد أركان الدين، وأن سرّ التكليف به بعدما يرتبط به من سدّه الفاقات أن المال محبوب إلى الخلق، والمؤمن مأمور بحب الله تعالى ومدّع للحب بنفس الإيمان فجعل بذل المال المحبوب عندهم معياراً لحبّهم، وامتحاناً لصدقهم في دعواهم فإن المحبوبات كلها تُبذل لأجل المحبوب الأغلب حبه على القلب.

فانقسمت القلوب فيه على ثلاث صفات: «الأولى» الأقوياء وهم الذين أنفقوا جميع ما ملكوه ولم يدّخروا لأنفسهم شيئاً، فهؤلاء رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الحب، كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذ جاء بماله كله فقال له رسول الله ﷺ: «ماذا أبقيت لنفسك؟»

قال: الله ورسوله.

«الثانية» المتوسطون، وهم الذين لا يقدرون على إخلاء اليد بمرة، ولكن أمسكوا للإنفاق عند ظهور مُحتاج إليه، فإذا ظهر بادروا إلى سدّ خلّته ولم يقتصروا على حدّ الواجب من الزكاة.

«الثالثة» الضعفاء، وهم المُقتصرون على أداء الزكاة الواجبة، فهذه درجاتهم وبذل كل منهم المال على قدر حُبّ الله تعالى. وما أراك تقدر على الدرجة الأولى ولا الثانية، فاجتهد ألا تجاوز الدرجة الثالثة، فإن مجرّد الواجب حدّ البخلاء، فاجتهد أن لا يمضي عليك يوم إلا وتتصدّق بشيء، فترتفع عن درجة البخلاء. وحافظ على زكاتك وصدقتك على خمسة أمور:

«الأول»: الإسرار بها، ففي الخبر: «صَدَقة السّرّ تُطفيء غضب الربّ» وبذلك تتخلص عن الرياء، فإنه غالب النفس، وهو مُهلك مُحبط للأجر.

«والثاني»: أن تحذر المَنّ، وحقيقته أن ترى نفسك مُحسناً إلى الفقير متفضلاً عليه. وعلامته أن تتوقع منه شكراً أو تستكثر تقصيره في حقك. وعلاجه أن تعلم أنه المُحسن إليك بقبول حق الله منك، وتطهيرك من رذيلة البخل فإن الزكاة كغسالة أوساخ الناس، ولهذا ترفع عنها رسول الله ﷺ وأهل بيته.

«الثالث»: أن تخرجها من أجود مالك وأطيبه، قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] وقال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً».

«الرابع»: أن تُعطي بوجه طَلْق، فدِرْهم مع طِيب نفس يَسْبق مائة درهم مع الكراهة.

«الخامس»: أن تتحرّى لصَدَقتك مَحلاً تزكو به، وهو العالم التقي الذي يستعين بها على طاعَة الله وتقواه، والصالح المُعيل وذو الرّحم، فإن لم تجتمع هذه الأوصاف فبأحدها تزكو الصدقة أيضاً. ورعاية التقوى هي الأصل، قال ﷺ: «لا يأكل طعامَكَ إلا تَقِيّ ولا تأكل إلا طعام تقيّ» انتهى.

وقد عرفتَ أنه جعل الاقتصار على أداء الزكاة الواجبة حدّ البخلاء، ويلزم منه أن منع الواجب حدّ الأشقياء، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] وإن ظاهره أن من لم يقم الصلاة ويؤت الزكاة فليس من إخوان المسلمين في الدين. وفي ذلك غاية الزجر لمن أراد الله به خيراً ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يُؤدي منها حقّها إلا إذا كان يوم القيامة صُفحت له صَفائح من نار فأُحمي عليها في نار جهنم فيُكوى بها جنبه وجَبينه وظَهره كلما بردت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضيَ الله بين العباد فيرَى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]. الآية.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد لا يُؤدي زكاة ماله إلا مُثّل له يوم القيامة شُجاعاً أقرع حتى يُطوّق به في عُنقه ـ ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مِصداقه من كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ

مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآية. رواه ابن حبان والنسائي بإسناد صحيح، وابن خزيمة في صحيحه. والشُّجاع: الحيّة، والأقرع: الذي ذهب شعر رأسه من السم.

* * * * *

صيام رمضان

وأما صيام رمضان: فهو أحد قواعد الإسلام، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٥] الآيات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عَمَلٍ إذا عَمِلْتُه دَخلتُ الجنة؟ فقال: «تَعْبُدُ الله ولا تُشرك به شيئاً، وتُقيم الصلاة وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتَحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً» قال: والذي بعثك بالحق نبياً لا أزيدُ على هذه ولا أنقص، فلما ولّى قال النبي ﷺ: «من سَرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» رواه البخاري ومسلم.

وقد جاء في فضل الصوم أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ: فمنها قوله ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتِساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذَنْبه» رواه البخاري ومسلم.

وقوله ﷺ: «إذا جاء رمضانُ فُتِّحت أبواب الجنة وغُلِّقت أبواب النار وصُفِّدت الشياطين» رواه البخاري ومسلم.

وقوله ﷺ: «قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به. والصيام جُنَّة فإذا كان يوم صَوْم أحدِكم فلا يَرْفُثْ (١) فإن شاتَمَه أحد فليقل: إني صائم، والذي نفس محمد بيده لَخَلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا

أفطر فَرِح بفطْره، وإذا لَقِيَ ربَّه فَرِح بصومه» رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية لمسلم: «كل عمل ابن آدم يُضاعَف له، الحسَنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف، قال الله تعالى: إلا الصيام فإنه لي وأنا أَجْزي به يترُك شهوته وطعامه من أجلي».

وحَذَّر ﷺ من الإفطار في رمضان بقوله ﷺ: «من أفطر يوماً من رمضان من غير رُخصة ولا مَرَض لم يَقْضِ عنه صوم الدهر كله وإن صامه» رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وابن خزيمة في صحيحه.

أسرار الصوم

قال الإمام الغزالي في أسرار الصوم:

اعلم أن لكل شيء باباً، وباب العبادة الصوم لأنه قَهْر لعدوّ الله، ففي الخَبَر: «إن الشيطان لَيجْري من ابن آدم مَجْرى الدم فضيِّقوا مَجاريه بالجوع».

ثم الصوم بالنسبة إلى مِقْداره ثلاث درجات. وبالنسبة إلى أسراره على ثلاث درجات أيضاً.

أما درجات مِقْداره فأقَلُّها الاقتصار على صوم رمضان، وأعلاه صوم داود عليه السلام: وهو أن يصوم يوماً ويُفطر يوماً، فذلك أفضل من صوم الدّهر.

وسرّه أن من صام الدّهر كان الصيام له عادة فلا يُحس بمَوْقعه في نفسه بالانكسار، وفي قلبه بالصّفاء، وفي شهوته بالضَعف، فإن النفس إنما تتأثر بما يَرِد عليها إلا بما مَرِنَت عليه، ولا يُسْتبعد هذا، فإن الأطباء ينهَون عن اعتياد شرب الدّواء لغير حاجة، وقالوا: من تعوّد ذلك لَمْ يَنتفع به إذا مَرِض، إذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به.

وأما الدرجة الوسطى فهي أن تصوم ثُلث الدهر، ومهما صُمتَ الاثنين والخميس كان ذلك مع رمضان ثلث السنة، فلا يَنبغي أن يَنقُص صوم الناسك عن هذا، فإنه خفيف على النفس وثوابه جزيل.

وأما درجات أسراره فثلاث، أدناها أن يقتصر على الكف عن المُفطرات من غير أن يكف جوارحه عن المناهي، وذلك صوم العوام لقناعتهم بالاسم.

الثانية: أن يُضيف إليه كَفّ الجوارح، فيحفظ لسانه عن الغيبة وغيرها، والعين عن النظر، وكذا سائر الأعضاء، وذلك صوم الخواص.

الثالثة: أن يُضيف إليه صِيانة القلب عن الفكر والوَسْواس، ويجعله مقصوراً على ذِكر الله، وذلك صوم خواص الخواص، وهو الكمال.

ثم للصوم خاتمة بها يكمل وهي: أن يُفطِر على طعام حلال، ولا يَسْتكثر من الأكل بحيث يَتدارك ما فاته من الغداء، فيكون قد جمع بين أكلتَين في دفعة واحدة فتثقل مَعِدته وتقوى شهوته، ويَبْطل سِرّ الصوم، ويُفضي إلى التكاسُل عن التهجّد وربما منع اليقظة قبل الصبح، وذلك خُسران لا تَفِي به فائدة الصوم.

خصائص الصائمين وشرفهم

اختَصّ الله الصائمين بباب في الجنة يدخلون منه يوم القيامة. وإظهاراً لشرفهم وفضلهم ينادي منادٍ على رؤوس الأشهاد: أين الصائمون فيراهم القاصي والداني وتَمتَدّ إليهم الأبصار وتشرئبّ الأعناق، ويتمنى متمنٍّ أن لو كان معهم وفي رَكْبهم الميمون، ويتحسر متحسر على مافاته في الدنيا من فُرصة العمل والجدّ وما ضاع عليه من أوقات ثمينة وساعات عديدة يُصوّر ﷺ هذا المَشهَد فيقول: «إن في

الجنة باباً يُقال له: «الرّيان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم يقال: أين الصائمون يوم القيامة فيقومون فيدخلون فإذا دخلوا أُغلِق عليهم فلم يَدخل منه أحد». أخرجه أحمد والشيخان عن سهل بن سعد.

واختص الله سبحانه وتعالى الصائمين أيضاً بأن جعل صومهم لهم حصناً حصيناً من النار وسَتْراً يقي صاحبه مما يُؤذيه من الشهوات يقول ﷺ: «الصيام جنة حصينة من النار». رواه أحمد والبيهقي في الشعب.

ثم يبيّن لنا ﷺ حقيقة هذا الصوم الذي يحفظ صاحبه من النار فيقول: «الصيام جُنة من النار كجُنة أحدكم من القتال ما لم يَخْرِقْها بكِذْب أو غِيْبَة» رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

وكأنه يقول إن المدار بالصيام هنا صيام من سلم صيامه من المعاصي قولاً وفعلاً ولذلك حثّ الصائم أن يلتزم مَسْلَك الفضيلة ويَبْتعد عن دواعي الرذيلة حتى يتحقق بالصيام الذي هو جُنة فيقول: «الصيام جُنة من النار فمن أصبح صائماً فلا يجهل يومئذ وإن امرؤ جَهِل عليه فلا يَشْتمه ولا يَسُبُّه وليَقُل: إني صائم» رواه النسائي.

واختص الله الصائم أيضاً بأن جعل تَغَير فمه أطيب من ريح المسك فقال: «ولَخَلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». والخَلُوف تغيّر الفم من الصوم.

واختص الله الصائم بأن جعل له في صيامه فرحتين فإذا أفطر فرح وإذا لقي الله فرح فرحُه بفطره تعبير صادق عن شكره التام لربه الذي وفقه لإتمام صوم ذلك اليوم ومكّنه بواسطة تمام صحته وقوته فأدّى عبادة يومه كاملة غير ناقصة فهو في فرحه هذا في عبادة لأن الشكر عبادة وذِكْر.

وفَرَحه بلِقاء الله اطْمئْنان بوَعْد الله ويقين جازم بقبول العمل بمشاهدة عظيم الثواب عليه.

يقول ﷺ عن ذلك: «وإن للصائم فرحتين. إذا أفطر فرِحَ وإذا لقي الله فرح». رواه مسلم في الصحيح.

واختص الله الصائم بأن جعل له في صومه الصحة والشفاء من كثير من الأمراض ففي الحديث: «صوموا تَصِحّوا». رواه ابن السُّنّي وأبو نُعَيم.

وأخرج البيهقي عن عليّ كَرّم الله وجهه قال ﷺ: «إن الله أوحى إلى نبيّ من بَنِي إسرائيل أن أَخْبِر قومَك أنه ليس عَبْدٌ يَصوم يوماً ابْتغاء وَجْهي إلا أَصْحَحْتُ له جِسْمَهُ وأَعْظَمْتُ له أَجْره».

سِرّ ذلك أن للصوم تأثيراً عَجيباً في حِفْظ الأعضاء الظاهرة وقُوَى الجوارح الباطنة وحمايتها من التَّخليط الجالب للمَواد الفاسدة واستفْراغ المواد الرّديئة وذلك من أكبر العَوْن على التّقوى كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

واختص الله الصائم بإبعاد وجهه عن النار فلا ترى عينه أيّ مَشْهد من مشاهد النار. يقول ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله بعّد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً» أخرجه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي سعيد الخدري وعند ابن ماجه عن أبي هريرة وفي رواية النسائي عن عُقبة بن عامر: «باعَد الله منه جهنم مسيرة مائة عام».

ومما اختص الله سبحانه وتعالى به الصائمين ما وَرَد في القرآن من فَضائلهم التي قال كثير من العُلماء في كثير منها: أن المراد بها الصائمون ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] فُسِّر

بالصائمين لأنهم ساحوا إلى الله عز وجل أي وصلوا إليه بسبب خروجهم عن مألوفاتهم ومقاساتهم عناء الجوع والعطش.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قيل: الصابرون هم الصائمون لأن الصبر اسم من أسماء الصوم فحينئذ يُفرَغ للصائم من خزائن الفضلِ والجُود والكَرم ما لا يُحصيه الحُساب ولا يُقدّره إلا ربّ الأرباب.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. قيل: عملهم الذي جُوزوا عليه بما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَر على قلبِ بشر هو الصوم.

واختص الله تعالى الصائم بأن جعل حاله كله عبادة وطاعة فهو إن صَمَت عن فُضولِ الكلام في طاعة وإن نام ليتقوى على القيام في طاعة أيضاً رُوي عنه ﷺ: «صَمْتُ الصائم تسبيح ونومه عبادة ودُعاؤه مُستجاب وعمله مُضاعف» رواه الدَّيْلَمي عن ابن عمر.

وفي فُطوره له فَرْحة الشكر. وهي عبادة وله في ذلك الوقت دعوة مُستجابة كما ثبت في الحديث: «للصائم عند إفطاره دعوة مُستجابة» أخرجه ابن ماجه والحاكم وأبو داود الطَّيالِسي والبَيْهقي.

ولا يخلو أن يدخل في ذلك الوقت ضِمن الذين أسعدهم الله فكتبهم من العتقاء من النار في تلك الساعة كما ثبت في الحديث: «إن الله تعالى عند كل فِطْر عُتَقاء من النار وذلك في كل ليلة». رواه ابن ماجه وأحمد والطَّبَراني والبيهقي. وسحوره بركة كما ثَبَت ذلك في الحديث الشريف وصومه بعد ذلك ثوابه الجنة.

واختصّ الله الصائم بأن جعل لمن فطّره من الثواب الجزيل ما لا ينقص من ثواب الصائم نفسه. وفي سبيل إكرام مَن أكرم الصائم جعل

هذا الثوب ولو كان على لُقمَة خُبز أو شَرْبة ماء.

فقال ﷺ: «من فطّر صائماً في رمضان من كسب حلال صلّت عليه الملائكة ليالي رمضان كلها وصافحه جبريل ليلة القدر ومن صافحه جبريل تكثر دُموعه ويرق قلبه فقال رجل: يا رسول الله أرأيت من لم يكن ذاك عنده؟ قال: فلقمة خبز قال: أرأيت من لم يكن ذاك عنده؟ قال: فقبضة من طعام قال: أفرأيت من لم يكن ذاك عنده؟ قال: فمذقة من لبن قال: أفرأيت من لم يكن ذاك عنده؟ قال: فشربة من ماء». أخرجه أبو يعلى وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان في الضعفاء.

واختص الله الصائم بأنه إذا أكل عنده جماعة مفطرون وهو يشهد وينظر لا يمنعه من الأكل معهم إلا حرمة الصيام فإنه تصلي عليه الملائكة. أخرج أحمد والترمذي: «إن الصائم إذا أوكل عنده لم تزل تصلي عليه الملائكة حتى يفرغ من طعامه».

وفضائل الصوم مطلقاً كثيرة فمنها: أن الله تعالى أضاف ثوابه إليه دون سائر العبادات فقال: «الصوم لي وأنا أجزي به» وهو حديث صحيح ثابت.

فاختص الصوم عن بقية الأعمال بإضافته إلى الله تعالى إضافة تشريف إعلاماً بأن ثوابه وصل غاية تقصر العقول عن إدراكها وأيضاً لأنه لم يتقرب إلى غير الله بالصوم لذاته. وصوم أصحاب الهياكل والاستخدامات للنجوم ليس لذات الهياكل والنجوم لأنهم لا يعتقدون أنها فعالة بنفسها. فصومهم في الحقيقة لربها وأيضاً لأن الصوم إشارة إلى سر صمديته تعالى دون سائر العبادات وأيضاً لأن الاستغناء عن الطعام وسائر الشهوات من صفاته تعالى والصوم فيه نوع يوافقها فلذلك أضافه تعالى إليه. ومن ثم قال القرطبي: معناه أن أعمال العباد مناسبة لأحوالهم إلا الصوم فإنه مناسب لصفة من صفات الحق فكأنه

تعالى يقول: إن الصائم يتقرّب إليّ بأمر هو من صِفاتي.

وأيضاً فإن الصوْم فيه تَرْك جميع حُظوظ النفس وشَهَواتها الأصليّة التي جُبلت على المَيْل إليها لله تعالى ولا يُوجَد ذلك في عبادة أُخْرى ألا تَرَى أنّ الإحرَام بالحج أو العمرة وإن حَرّم كثيراً من المُباحات لكنه لا يحَرّم الأكل والشرب.

* * * * *

الحج أحد أركان الإسلام

الحج أحد قواعد الإسلام الخمسة المَعْلومة من الدين بالضرورة، والمُجْمَع على فرضيّتها.

وقد اختُلِف في تعيين سَنَة فَرْضيته، فقال جماعة: فُرِض سنة خمس من الهجرة وبهذا قال كثير من أهل العلم، لأنه نزل فيها قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. بناء على أن المُراد: وأْتُوا بالحج تاماً. وقالت طائفة من أهل العلم: إنه فَرِض في السنة التاسعة من الهجرة.

والحج شرعاً عبادة يلزمها طواف وسعي ووقوف بعرفة ليلة عاشر ذي الحِجّة على وجه مَخصوص، وهو فرض في العمر مرّة، وواجب على المسلمين وجوباً كفائياً كل عام لإقامة مُوسم الدين، فلذا يَنْبغي لمن أراد الحج بعد أداء الفريضة أن ينوي إقامة الموسم لينال ثواب فرض الكفاية، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧] بيّن الله تعالى أوّلاً أيْ في هذه الآية المذكورة شَرَف البيت الحرام.

ثم دعا كافّة الناس إلى الحج «أحد أركان الإسلام» بالآيات والأحاديث والإجماع ثم أكّد ذلك في نهاية هذه الآية بتسمية مَنْ تَرَكه كافراً ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وقد جاء في فضل الحج عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة فمنها: عن

أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العُمْرة إلى العُمْرَة كفارة لما بينهما، والحج المَبْرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة» رواه البخاري ومسلم وعنه أيضاً قال: سُئل رسول الله ﷺ: أيّ عَمَل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله قيل: ثم ماذا؟ قال: حَجّ مَبْرُور» رواه البخاري ومسلم. المَبْرور الذي لا إثم فيه.

وعنه أيضاً قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من حَجّ فلم يَرْفُث ولم يَفْسُق رَجَع من ذنوبه كيومَ وَلَدته أمه» رواه البخاري ومسلم الرّفث: الجِماع ومُقدّماته.

أما الاستطاعة يعني في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فهي في الأصل طَوَاعية الفعْل وتأتّيه، والمراد بها الإرادة المُقْتَضية للقدرة، القُدْرة إما بالبدن أو بالمال أو بهما، وإلى الأول ذهب الإمام مالك، فيجب الحج عنده على من قدر على المَشْي والكَسْب في الطريق وإلى الثاني ذهب الإمام الشافعي، ولذا أوْجَب الاستنابة على الزَّمِن إذا وَجَد أُجْرةَ من ينوب عنه، وإلى الثالث ذهب الإمام أبو حنيفة.

رَوى الإمام الترمِذي في جامعه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مَلَك زاداً وراحلة تَحْمله إلى بيت الله الحرام ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً» وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وليس المُراد بمِلْك الراحلة خُصوصَ شرائها، بل هو أعَمّ من ذلك، كالقُدرة على استِجارها أو استئجار ما يوَصّله إلى الحج من نحو طائرة أو سيارة أو باخِرة.

وقال الإمام أبو عبدالله القُرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: وذَكَروا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لقد هَمَمْتُ أن

أبْعَثَ رجالاً إلى الأمصار فينظروا إلى من كان له مال ولم يحج فيضربوا عليه الجزية، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وعن الحسن البَصْري رضي الله عنه قال: إن من ترك الحج، وهو قادر عليه فهو كافر.

وهذا كله خَرَجَ مَخرج التَّغليظ والزَّجْر لتارك النُّسُك الواجب وتخويفه، فيحمله على القيام بأدائه، أو هو محمول على من أنكر أصل مشروعية الحج، أو على من استحل تركه مع استطاعته، ولهذا قال علماء المالكية ومن يرى رأيهم: تضمنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعيد يتوجه عليه، ولا يجوز أن يحج عنه غيره، لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد.

وقال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: لو مات جار لي وله مَيْسرة ولم يحج لم أُصلِّ عليه.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة، والآثار الجمّة العَديدة في وعيد مَنْ تأخر عن فريضة الحج وهو مُستَطيع الأداء ولم يَحُج مرة في عُمره.

فإن كنتَ أيها المكلّف من ذوي الغِنَى واليسار، وأنتَ ممن يَسْطع في قلبه نور الإيمان وتَشْتَعِل بين جوانحه نار الشوق حنيناً إلى الرُّبوع المُقدّسة وبلاد الله وبيته الحرام، وتحب أن تشاهد البطاح الحَرَميّة والمشاهد المُباركة المكّية والمَدَنيّة التي تشرّفت بالأنوار الساطعة المحمّدية، فما عليك إلا أن تَعزم وتُبادر للقيام بأداء هذه الفريضة الدينية، وتُبْدي من عزائمك القوية ونشاطك الباهر ما يُبَرْهن أنك من عباد الله الصادقين الذين استجابوا لله ورسوله وأخلصوا، وإياك ثم إياك

من التعلُّل والتَّسْويف، وإبداء الأعذار الباردة، فإن للتأخّر آفاتٌ وآفات.

إذا هَبّت رِيَاحُك فاغْتَنِمْها   فعُقْبى كل عاصِفة سُكونُ

أمَدّنا الله وإياك بتوفيقه.

هذا، وقد امتلأت الدنيا بالمخترعات الحديثة للراحة والنقل والأركاب وكَثُرت في أنحاء البلاد المُقدّسة السّيارات، وأضْحت الدنيا مُرْتبطاً بعضها ببعض بفضل الله تعالى ومُتّصلة ببلدِ الله الحرام وبلد نبيّه عليه الصلاة والسلام، ومُهِّد الطريق وقُرِّب البعيد، وانطَوت المسافات، وأصبح الحج أياماً معدودات. أما الطّمأنينة والأمن على النفس والمال في هذه البلاد، فكُلّ ذلك حدِّث عنه ولا حَرَج، فقد صار الأمن في كل الأيام وخُصوصاً في أيّام الموسم وازدحام البلاد بحُجّاج بيت الله الحرام مَضْرب الأمثال ولله الحمد والشكر على ما أنعم وتفضل أَوْزعنا الله لشُكر نِعَمه، فأقبلْ وبادِر وشَمِّرْ وسافِر، واخزِ الشيطان الخاسر بإقامة الشّعائر في هذه المَشاعِر، ولا تنسنا من دُعائك في خَلَواتك وجَلَواتك وصادق توجُّهاتك.

(من أسرار الحج)

اعلم أن أسراره الباطِنَة كثيرة، ونحن نُشير إلى أمرين منها:

«أحدهما»: أن تعلم أنه وُضِع بدلاً عن الرَّهْبانِيّة التي كانت في المِلَل الأُخرى كما ورد به الخَبَر، فجعل الله الحَجّ رَهْبانية هذه الأمة، وشَرّف البيتَ العتيق وأضافه إلى نفسه، ونَصَبه مَقْصداً لعباده، وجَعَل ما حَواليه حَرَماً لبيته تفخيماً لأمره، وجعل عرفة كالميزاب على فِناء حَوْضه، وأكّد حُرمة المَوْضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك ليقصده الزّوّار من كل فَجّ عميق شُعْثاً غُبْراً متواضعين لرب العالمين، خُضوعاً لجلاله مع الاعتراف بتنزيهه سبحانه

عن أن يحويه مكان، ليكون ذلك أبلغ في عبوديتهم، ولذلك وظف عليهم أعمالاً غريبة لا يأنس بها الطبع ولا يهتدي إليها العقل ليكون إقدامهم عليها بمحض العبودية، ومجرد امتثال الأمر من غير مقارنة باعث آخر لو عقل معناه، ولهذا سر عظيم في العبودية.

«الأمر الثاني»: أن تعلم أن هذا السفر وُضع على مثال سفر الآخرة، فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمراً من أمور الآخرة، موازناً له، فإن فيه تذكرة للمتذكرين، وعبرة للمعتبرين، فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك وداع الأهل في سكرات الموت، ومن مفارقة وطنك الخروج عن الدنيا، ومن ركوب الراحلة النعش، ومن لبس ثياب الإحرام الالتفاف في الأكفان، ومن دخولك البادية إلى الميقات ما بين خروجك من الدنيا إلى ميقات القيامة، ومن هول قطاع الطريق سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادي حيات القبر وعقاربه، ومن انفرادك عن أهلك وحشة القبر ووحدتك فيه، ومن التلبية إجابة الداعي عند البعث، وكذلك سائر الأعمال، فإن في كل عمل سراً ينبه به كل عبد على قدر استعداده وصفاء قلبه، وقصور همه على مهمات الدين.

فضائل الحاج وشرفه

ومن الشرف الذي ادخره الله تعالى لهذه الأمة، تلك الفضائل العظمى والمناقب الكبرى التي يختص بها الحاج من أفراد هذه الأمة وقد جمعت من تلك المناقب جملة صالحة سنذكر أهمها مع الدليل.

الأول: إن الحاج حجه يهدم ما قبله، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: قال: «لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ابسط يدك فلأبايعك قال: فبسط فقبضت يدي فقال: ما لك ياعمرو؟ قال: قلت: أشترط؟ قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها

وأن الحجّ يَهْدِم ما قبله». رواه مسلم.

الثاني: أن الحاج مُجاهد، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «جُهاد الكبير والصغير والمرأة الحج والعُمرة» أخرجه النسائي. وعن عثمان بن سليمان عن جدّته أم أبيه قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أريد الجهاد في سبيل الله فقال: «ألا أدُلّك على جهاد لا شَوْكة فيه؟ فقال: بلى. فقال: حج البيت». خرجه سعيد ابن منصور. وعن عمر أنه قال: إذا وضعتم السُروج فشُدّوا الرِّحال للحج والعمرة فإنها أحد الجهادَين. خرجه أبو ذرّ الهَرَوي.

الثالث: أن الحاج من وفد الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَفْدُ الله ثلاثة: الغازي والحاجّ والمُعْتمِر». خرّجه النسائي وخرجه ابن حبان في التقاسيم والأنواع بتقديم بعض اللفظ وزاد في بعض طُرقه: «دعاهم فأجابوا» رواه حمّاد بن سلمة من حديث ابن عمر وذكر هذه الزيادة وزاد «فسألوه فأعطاهم» وذكره ابن الحاج في مَنْسَكِه. وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الحُجّاج والعُمّار وَفْد الله إن سألوا أُعطوا وإن دَعَوا أُجيبوا وإن أنفقوا أُخلف عليهم والذي نفس أبي القاسم بيده: ما أهلّ مُهلّ ولا كبّر مُكبّر على شرف من الأشراف إلا هلّل ما بين يديه وكبّر بتكبيره حتى ينقطع مبلغ التراب» خرجه تمام الرازي في فوائده. وخرّجه ابن الجَوْزي في كتاب «مُثير الغرام الساكن» من حديث عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جدّه وقال في آخره: حتى يبلغ منقطِع.

الرابع: أن الحاج مُجاب الدعوة.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس دعوات لا تُرد: دعوة الحاج حتى يَصْدُر ودعوة الغازي حتى يَرجع ودعوة المظلوم حتى يُنصَر ودعوة المريض حتى يَبْرأ ودعوة الأخ لأخيه بالغيب، أسرعُ

هؤلاء إجابة دعوة الأخ لأخيه بالغيب» حديث صحيح من حديث سعيد ابن جُبير عن ابن عباس ولذلك كانَ مِن السُّنَّة أن يُطلَب من الحاج الدعاء وهذه السُّنَّة المطلوبة فعلها ﷺ مع عمر فإنه لما استأذن في العمرة فأذن له، قال له: «لا تنسَنا من دُعائك أو أشركنا في دعائك». رواه أبو ذَرّ الهَرَوي.

الخامس: أن الحاج نفقته في سبيل الله، عن بُريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله، الدرهم بسبعمائة ضعف» خرّجه ابن أبي شيبة وأحمد في مسندَيهما.

السادس: أن الحاج درهمه بأربعين ألف ألف، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا خرج الحاج من بيته كان في حرز الله فإن مات قبل أن يقضي نُسُكه وقع أجره على الله وإن بقِيَ حتى يقضي نُسُكه غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وإنفاق الدرهم الواحد في ذلك الوجه يعدل أربعين ألف ألف فيما سواه». ذكره الطبري في «القِرَى».

السابع: أن الحاج نفقته مَخلوفة، ثبت في الحديث: «الحُجّاج والعُمّار وفد الله إن سألوا أُعطوا وإنْ دعَوا أُجيبوا وإن أنفقوا أُخلف عليهم» خرجه تمام الرازي.

وفي رواية: «إن الله تعالى يقول لملائكته: واخلفوا لهم ما أنفقوا».

الثامن: أن الحاج مُعانٌ: عن أبي أمامة وواثلة بن الأسقع قالا: قال رسول الله ﷺ: «أربعة حق على الله عز وجل عَونُهم الغازي والمُتزوّج والمُكاتب والحاج».

التاسع: أن الحاج شافع، عن أبي موسى الأشعري قال: «الحاج يُشفَّع في أربعمائة من أهل بيته» خرجه عبدالرزاق في «مسنده» وفي رواية

المنذري: «مَن جاء حاجاً يُريد وجه الله غُفر له وشُفع فيمَن دعا له».

العاشر: أن الحاج مغفور له، عن جابر مرفوعاً: «ما من مُحرِم يُضحّي لله يُلبّي حتى تغيب الشمس إلا غابت بذنوبه فعاد كما ولدته أمه» رواه ابن ماجه.

وفي الحديث عن جابر: «إذا كان يوم عرفة فإن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: انظروا إلى عبادي شُعثاً غُبراً، اشهدوا أني غفرتُ لهم ذنوبهم فتقول الملائكة: يا رب فلان يُرهق - يعني يأتي المحارم - فقال: يقول الله عز وجل: فقد غفرتُ لهم» أخرجه في «شرح السنة» البغوي.

وهذه المغفرة عامة حتى للتبعات، فقد روى العباس بن مِرداس: أن النبي ﷺ دعا لأمته عَشيّة عرفة بالمغفرة فأُجيب: إني غفرتُ لهم ما خلا الظالم فإني آخذ للمظلوم منه قال: أي رب إن شئتَ أعطيتَ المظلوم من الخير وغفرتَ للظالم فلم يُجب فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء فأُجيب إلى ما سأل قال: فضحك رسول الله ﷺ أو قال: تبسم فقال له أبو بكر وعمر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إن هذه لساعة ما كنتَ تضحك فيها فما الذي أضحكك؟ أضحك الله سنك. قال: «إن عدو الله إبليس لما علم أن الله عز وجل قد استجاب دُعائي وغفر لأمتي أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه ويدعو بالويل والثبور فأضحكني ما رأيت من جزعه». رواه ابن ماجه.

الحادي عشر: أن الحاج يُغفر له ولمن يستغفر له، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج» رواه البيهقي وصححه الحاكم.

وعن مُجاهد قال: قال عمر رضي الله عنه: يُغفر للحاج ولمن

استَغفر لهُ الحاجّ بقيةِ ذي الحجة والمحرّم وصفر وعشر من ربيع الأول. رواه ابن أبي شَيْبة في «مصنَفه». وذكر هذا الخضروي في «العِقد الثمين» ولذلك كان ابن عمرُ يقول: إذا لقيتَ الحاج فسلّمْ عليه وصافحْه ومُرْه أن يستغفر لك قبل أن يدخُل بيته. رواه أحمدُ في «مسنده» فكانوا يحبون أن يدخلوا في هذه الخصوصية.

الثاني عشر: أن الحاج يُباهي الله به الملائكة، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إن الله يُباهي بأهل عرفات ملائكة السماء» رواه ابن حبان وأحمد.

الثالث عشر: أن الحاج من أهل الجنة: «الحج المبْرور ليس له جزاء إلا الجنة وبرّ الحج إطعام الطعام وإفشاء السلام» رواه أحمد. والمعنى أنه لا يقتصر فيه على تكفير بعض الذنوب بل لا بد أن يبلغ به الجنة.

ولا غرابة بعد هذه الخصائص والمزايا التي امتاز بها الحاج في أن يحرص المسلم كل الحرص وتشتد رَغبته ويَعظم طلبه ويجتهد في حضور هذه المشاهد وإدراك هذه الخصائص ولو كان من أهل الأعذار الذين قد قضوا فرضهم، وأكثروا من التطوع بهذا النُسُك الشريف قال بعضهم: رأيتُ في الطواف كهْلاً وقد أجهدته العبادة وبيده عصاً وهو يطوف معتمداً عليها فقال لي: في كم تقطعون هذا الطريق؟ قلتُ: في شهرين فقال: فهل تحجّون كل عام؟ فسكتُّ فسألتُه: وكم بينكم وبين هذا البيت؟ قال: مسيرة خمس سنين، فقلت: والله هذا هو الفضل المبين والمحبّة الصادقة فضحك وأنشأ يقول:

زُرْ من هَوِيتَ وإن شطّت بك الدار ... وحالَ مِن دونه حُجُبٌ وأستارُ
لا يَمنعنّك بُعدٌ عن زيارته ... إن المُحِبَّ لمن يَهواه زوّارُ

وعن شقيق البَلْخي رحمه الله قال: رأيتُ في طريق مكة مُقْعَداً

يَزْحف على الأرض فقلتُ له: مِن أين أَقْبلتَ؟ قال: مِن سَمَرْقَند، قلتُ: وكم لَكَ في الطريق فذكر أعواماً تزيد على العَشَرة فرفعتُ طَرْفي أنظرُ إليه مُتَعجّباً فقال: يا شقيق مَالَكَ تَنظُر إليّ مُتَعجّباً؟ فقلتُ: أَتعجّبُ من ضَعْف مُهْجَتك وبُعد سفرك فقال: يا شقيق: أما بُعْد سفري فالشوق يقوّيه وأما ضَعْف مُهْجتي فمولاها يَحْملها، يا شقيق أتعْجب من عَبْد يحملُه المولى اللطيف وأنشأ يقول:

أزُورُكم والهوى صَعْبٌ مسالكُه ... والشوق يَحْمِل والآمالُ تُسْعده

ليس المُحِبّ الذي يَخْشى مَهالكه ... كلا ولا شِدّة الأسفار تُبْعِده

* * * * *

مسئولية الإيمان

قال ﷺ: «لا تزول قَدَما عبْد يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس عن عُمُره، فيمَ أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علْمه ماذا عمل فيه» رواه الترمذي قال: حديث حسن صحيح، والعُمر يعمّ زمن الشباب وغيره، وخصّ الشباب في النّظم لأنه وقت قوة العُمُر، فهو أولى بالاجتهاد في الطاعة، والمراد الحثّ على إنفاق العمر في طاعة الله تعالى، والصبر على ذلك إلى المَمات، قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٨ ـ ٩٩] وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠] وقال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بادِروا بالأعمال الصالحة فِتَناً كقِطَع الليل المُظلم يصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً ويمسي الرجل مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا» رواه مسلم.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ يرويه عن ربه عز وجل: «إذا تقرب العبد إليّ شبراً تقرّبت إليه ذِراعاً، وإذا تَقرّب إليّ ذراعاً تَقرّبت إليه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلة» رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القَوِيّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير. احْرص

على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح باب عمل الشيطان». رواه مسلم.

وعن عبدالله بن بُسْر - بالسين المهملة - رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس من طال عُمُره وحَسُن عمله» رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

السؤال عن المال:

وأما المال: فالمطلوب أن يكتسبه من حلّه وينفقه في الخيرات، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طَيّب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يُطيل السّفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء يا ربّ يا ربّ ومَطعَمه حرام ومَشرَبه حرام وغُذِيَ بالحرام فأنّى يُستجاب له». رواه مسلم.

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من جَمَع مالاً من حرام ثم تَصدّق به لم يكن فيه أجر وكان إصره عليه» رواه ابن خُزيمة وابن حبان في صحيحهما.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يكتسب عبد مالاً حراماً فيتصَدّق به فيُقبل منه، ولا يُنفق منه فيُبارك له فيه، ولا يترُكه خَلفه إلا كان زادُه إلى النار. إن الله لا

يَمْحو السَّيِّء بالسَّيِّء ولكن يمحو السَّيِّء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث». رواه الإمام أحمد بإسناد حسن.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْتٍ» رواه ابن حبان في صحيحه.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام لم يقبل الله له صلاة مادام عليه، ثم أدخل أصبعَيه في أذنيه وقال: صُمَّتا إن لم أكن سمعتُ النبيّ ﷺ يقوله» رواه الإمام أحمد.

وعن علي رضي الله عنه: «من جعل الحلال قوتاً أُجيبت دعوته، وكمُلت مروءته وحَسُنت سريرته، ورَقَّت دَمْعته، وعَلَت كلمته، وحَصلت أُمنيته، وطابت مَنيَّته، وطَهُرت ذُرِّيَته، وتنوَّرت نُطْفته، وظهرت حِكْمَتَه، وقَلّ غَضَبه، ورَقّ قلبه، وخَفّ ذنبه، ورَدُّ درهم حرام أفضل عند الله من أربعة آلاف حَجَّة مقبولة». انتهى.

دَرَجات الوَرَع

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: «اعلم أنّ طِيْبَ المَطْعَم له خاصِّيَّة عظيمة في تصفية القلب وتَنْويره، واستعدادَه لقبول أنوار المعرفة. وفيه سرٌ عظيمٌ لا يحتمل الكتابُ ذِكْرَه، ولكن ينبغي أن تفهم أن درجات الوَرَع أربع:

«الأول»: التَّورُّع عما يتحقق الفسق باقتحامه، وتزول العدالة بارتكابه وهو الذي تحرِّمه فتوى الفقهاء.

«الثانية»: ورع الصالحين، وهو الحَذَر عما يتطرق إليه احتمال التحريم وإن أفتى المفتي بحِلِّه بناء على الظَّاهر، وهو ما قال فيه ﷺ: «دَعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُك».

«الثالثة»: ورع المتقين، قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العَبد درجة المتقين حتى يترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس».

«الرابعة»: ورع الصديقين، وهو الحَذر عن كل ما لا يُراد بتناوله القوة على طاعة الله تعالى، أو كان قد تطرق إلى بعض أسبابه معصية، فما كان بِشر الحافي يشرب الماء من الأنهار التي حفرها السلاطين.

وهذه رتبة قوم عدُّوا كل ما لم يكن لله حَراماً، فاجتهدْ أن تفي بالدرجة الأولى وهي ورَع العدول، والذي يفتي به الفقهاء لكن بشرطين:

«أحدهما»: أن تحذر مواقع الغُرور فيما أفتَوا به بحسب الظاهر كقولهم فيمن يسيء مُعاشرة زوْجته حتى تُبرئه من المَهْر: إن الإبراء صحيح، لأن مطمح الفقيه إلى ظاهر الأمر، وأما من أراد ما يُبرئ ذمّته غداً عند من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فلم يلتفت إلى هذا، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤] وهذه ليست بطيبة نفس، وإنما تخلصت من شره، فلا يحل له المهر بينه وبين الله تعالى. وهذا باب طويل وأصله ألا تستحل مال غيرك إلا برضاً مُطلَق صادق، وكذلك ينبغي ألا تأكل بالسؤال فإن سألتَ فاحذر أن يكون على المَلأ فربمَا يعطيك على الحياء ولا فرق بين أن تأخذ مال إنسان بضرب ظاهره أو مع تألم باطنه، وكل ذلك حرام عند ذوي البصائر وإن أفتى المُفتي بحِله ظاهراً.

«الثاني»: أن تراجع قلبك فإن الإثم حزاز القلب، والذي يضرك ما حاك في صدرك ولذلك قال النبي ﷺ: «استفتِ قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك» هذا الفن يطول ذكره ولكن اعْلَمْ على الجملة أن المَحْذور من الحَرام هو إظلام القلب والمطلوب من الحلال تنويره وذلك إنما يتشعب من اعتقادك لا من نفس الشيء المعتقد فمن وطىء امرأة على

ظَنّ أنها أجنبية فإذا هي مَنكوحة أظلم قلبه، بخلاف العكس فالاستشعار هو المؤثر في تنوير القلب وإظلامه وإن لم يكن على وفق الحال. فأنت في الحال متعبّد بما يطمئن إليه قلبك لا بما يُفتي به المُفتي. فاستفتِ قلبك.

وإياك أن تشدّد على نفسك فتقول: أموال الدنيا كلها حرام لكثرة الأيدي الغاصبة والمعاملات الفاسدة بل اعْلَمْ قطعاً أن الحلال بَيِّن والحرام بيِّن وبينهما مُشتبهات. كذلك كان في عصر رسول الله ﷺ، وكذلك يكون أبد الدهر فاستمد مما ذكرناه أنك غير مُتعبّد بما هو حلال في نفس الأمر بل بما هو في اعتقادك حلال لا تعرف سبباً ظاهراً في تحريمه.

وهذا الباب يستدعي شرحاً طويلاً، فإن رغبتَ فيه فطالِعْ «كتاب الحلال والحرام» من «الإحياء» لتستفيد عند مطالعته إن شاء الله تعالى، فإنه لم يُصنَّف في فنّه مثله في التحقيق والتحصيل، والإحاطة بجميع التفاصيل.

السؤال عن العلم

وأما السؤال عن عِلمه ماذا عمل فيه فقد وَرَدَ الوعيد الشديد فيمن لا يعمل بعلمه، وخالف قولَه فعله، قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ ﴾ [المائدة: ٦٨] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فتَنْدَلِقُ أقتابه فيدور بها

كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه».

قال أسامة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مررت ليلة أسري بي بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون» رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس عذاباً عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه» رواه الطبراني.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا يَنْفَعُ ومن قلب لا يَخْشع ومن نفس لا تَشبع ومن دعوة لا يستجاب لها» رواه مسلم.

(شرف العلم والعبادة)

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: اعلم أن العلم والعبادة جوهران لأجلهما كان كل ما نرى ونسمع، من تصنيف المصنِّفين، وتعليم المعلّمين، ووعظ الواعظين ونظر الناظرين. بل لأجلهما أُنزلت الكتب، وأُرسِلت الرسُل. بل لأجلهما خلقت السماوات والأرض وما بينهما.

وتأمل آيتين في كتاب الله ـ «إحداهما» ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم، ولا سيما علم التوحيد.

و«الثانية»: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

[الذاريات: ٥٦] وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العبادة ولزوم الإقبال عليها. فأعظم بأمرين هما المقصود من خلق الله، فحق للعبد ألا يشتغل إلا بهما، ولا ينظر إلا فيهما.

واعلم أن ما سواهما من الأمور لا خير فيه ولا حاصل تحته. فإذا علمت ذلك فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما.

ومع ذلك فلا بُدّ مع العلم من العمل به، وإلا كان هباءً منثوراً، فإن العلم بمنزلة الشجرة، والعبادة بمنزلة الثمرة، والشرف للشجرة إذ هي الأصل، لكن الانتفاع إنما يحصل بثمرها.

فإذاً لا بُدّ أن يكون لك من كلا الأمرين حظ ونصيب. بل لا بد للعبد من أربعة أشياء: العلم، والعمل، والإخلاص، والخوف، فيعلم الطريق أولاً وإلا فهو أعمى ثم يعمل بعلمه ثانياً وإلا فهو محجوب.

ثم يُخلص العمل ثالثاً وإلا فهو مغبون ثم لا يزال يخاف ويحذر من الآفات وإلا فهو مغرور فإن الأعمال بالخواتيم، وما يدري ماذا يُختم له به.

شُؤم المعاصي

قال الله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وعن أبي ثَعلبة الخُشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله فرض فرائض فلا تُضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تَعتدوها، وحرّم أشياء فلا تَنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نِسيان فلا تَبحثوا عنها».

قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى: هذا حديث حسن صحيح رواه الدارقُطني وغيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق المَحارمَ تكن أعبدَ الناس، وارضَ بما قَسَم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تُكثِرْ الضحك فإن كثرة الضحك تُميت القلب» رواه الترمذي.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خصال خمس أعوذ بالله أن تُدرِكوها: لم تظهر الفاحشة في قوم إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشِدّة المئونة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمطروا، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدواً من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم» رواه ابن ماجه والبيهقي والبزار.

واعلم أن للمعاصي من الآثار القَبيحة بمقدار ما للتقوى من الأوصاف الحسنة.

وبالجملة، فكما أنه لا خير في الدنيا والآخرة إلا وسببه التقوى فكذلك ليس في الدنيا والآخرة شر ولا بلاء ولا مِحنة إلا سببه المعاصي، فهي سبب كل فساد في البر والبحر، من هلاك الأديان والأبدان، والأمراض والأسقام، وفساد الزروع والثمار، والقحط والخوف، والغرق في البحر، وهلاك الأموال والأنفس وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وهي سبب زوال النعم وحُلول النِّقم، والندم حيث لا ينفع الندم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ

بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وهي سبب زوال الإيمان واللعنة وغضب الرحمن، والذُّل والمَسْكنة والهوان قال الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] وهي سبب لعن أهل الكتاب وامتحانهم بما أخبر الله تعالى به عنهم مرة بالقتل والسَّبي وجُور الملوك، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾. وأخرى بخراب الدِّيار ونهب الأموال، كما قال الله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥] وتارة بمَسْخهم قِرَدة وخنازير، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]. بل هي سبب هلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية لقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ثم حذَّرنا الله أن يَحلّ بنا ما حَلّ بهم بقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]. ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] وبقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨١ ـ ٨٢].

عظُمَتْ مُصيبةُ مَنْ عَصى مَوْلاه ... وخَلا بذاك الذَّنب وهو يراهُ

كيف استقرَّ قرارَه لَمّا عَصَى ... أم كيف لا تجري دَماً عيناهُ

يا مُذْنباً لمْ تَجْرِ منه دموعَه ... أسَفاً على ما كانَ مِن بَلْواه

إنـي أظُنُّـك مُبتلـى بقسـاوة ... يـامـن يَقِـلّ دُمـوعـه وبُكـاه

فضل الذكر

وقد جاء في فضل الذكر عُموماً، وفَضْل هذه الكلمات خصوصاً ما لا يُحصر من آي الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢] وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أُنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكرُ الله**» رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئِل: أيّ العباد أفضل وأرفعُ درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «**الذاكرون الله كثيراً**» وقيل: يا رسول الله، ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: «**ولو ضرب بسيفه حتى ينكسر ويَختضِب دَماً لكان الذاكر أفضل منه وأرفع درجة**» رواه الترمذي.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت**

عليه الشمس» رواه مسلم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيتُ إبراهيم عليه السلام ليلة أُسري بي فقال: يا محمدُ أقرِئ أمّتك السلام وأخبِرهم أن الجنة طيبة التُّربة عَذبةُ الماء وأنها قِيعانٌ وأن غِراسها سبحان اللهِ والحمد لله ولا إله إلا اللهُ والله أكبر» رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر قَبَض عليهن مَلَك فضَمَّهُنّ تحت جناحه وصَعَد بهن فلا يمر على جمع مع الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الرحمن جل وعلا، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما تذكرون من جلال الله التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ينعطِفن حول العرش لهن دَوِيٌّ كدَوِيّ النحل تُذكِّر بصاحبها، أما يحب أحدكم أن يكون له من يُذكِّر به» رواه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «ما على وجه الأرض أحدٌ يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إلاّ كُفِّرت عنه خطاياه ولو كانت مِثل زَبَد البحر» رواه الحاكم وصححه.

قال الحافظ ابن قيم الجَوْزيّة رحمه الله، إنما قيّد سبحانه في قوله ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] الذكر بالكثرة لشدة حاجة العبد

إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأيّ لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله، كانت عليه حسرة يوم القيامة.

وفي البيهقي عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «ما من ساعة تمرّ بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة».

وعن معاذ يرفعه: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله فيها».

وقال أبو الدرداء: «لكُل شيء جِلاء وجلاء القلوب ذِكْر الله».

وفي البيهقي مرفوعاً: «لكل شيء صَقالة وإن صقالة القلب ذِكْر الله».

ولا ريب أن القلب يَصْدَأ كما يَصْدأ النُحاس وغيره، وجلاؤه ذكر الله فإنه يَجْلوه حتى يَدعه كالمرآة البيضاء، وإذا تُرِك الذّكر صَدِىء، وصَدأ القلب من أمرين: الغفلة والذنب، وجلاؤه بأمرين: الذكر والاستغفار فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكماً على قلبه، وإذا صَدِىء القلب لم تنطبع فيه صُوَر المعْلومات على ما هي عليه فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل. فإن تراكم عليه الصّدأ أظلم واسْودَ، وركبه الرّان الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

وحينئذ يَفسُد تصوّره فلا يَقبل حقاً ولا ينكر باطلاً، وذلك أعظم عُقوبات القلوب ﴿ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وأصل ذلك كله من الغفلة عن ذكر الله واتباع الهوى في سخط الله، فإنهما يَطمسان نور البصرة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

فإذا أردتَ أن تقتدي برَجل فانظُر هل الغالب عليه الذكر أو الغَفْلة؟ وهل الحاكم عليه إتباعَ الهوى أم السُّنّة، فإنْ كان من أهل الغفلة والهوىَ فلا تَقْتَدِ به ولاَ تتبعه، فأمره فرَط، معناه: مضيّع أمره، أي أنّ أمره الذي يجب عليه أن يقوم به ويلازمه وبه رشده وفلاحه ضائع، لأنه قد فرّط فيه، وقد نَهَى الله سبحانه عن طاعته.

فوائد الذكر

وفي الذكر أكثر من مائة فائدة:

(منها): أنه يطرد الشيطان ويَقْمعه فيحرز العبدُ نفسه منه، ولو لم يكن في الذكر إلاّ هذه الخصلة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه عن ذكر الله، فإنه لا يدخل عليه العدو إلاّ من باب الغفلة عن ذكر الله، لأنه جاثم على قلب ابن آدم فإذا غفَل وسوس، وإذ ذكر الله انخنس وتصاغر عدوّ الله حتى يصير كالذباب، وبهذا سُمّي الوَسْواس الخنّاس.

(ومنها): أن يُرْضي الرحمن عز وجل، ويُزيل الهَمّ والغَمّ، ويجلب الفرح والسرور ويقوّي القَلب والبدن، ويُنوّر القلب والوجه، ويجلب الرزق، ويَكسو الذاكر الهيبة والوقار.

(ومنها): أنه يوصل العبد إلى المقامات الرفيعة، كمقام المحبة التي هي قطب رحى الدين، ومدار السعادة، فقد جعل الله لكل شيء سَبباً، وسبب المحبة دوام الذكر وكما أن الدرس والمذاكرة باب العلم، فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم. وكمُقام المراقَبة والإحسان، فيعبد الله كأنه يراه. وكمقام الإنابة إلى الله فمتى لازم العبد ذكر الله تعالى أورثه رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله فيكون الله لا غيره مفْزَعَه عند النوازل. وكمقام المَعْرفة، فإنه كلما أكثر من ذكر الله فتحَ الله له

باباً عظيماً من المعرفة. وكمقام القُرْب، فإنه على قَدْر ذكره الله عز وجل يكون قريباً منه، وفي الحديث: «أنا جليس من ذكرني» وكمقام الخَشْيَة لله، فإنه على قَدْر ذكر الله وحضور قلبه فيه تكون خشيته منه، بخلاف الغافل فإن حجاب الخَشْية في قلبه رقيق.

(ومنها): أنه يُوْرِث ذكر الله للعبد، كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها شَرَفاً.

(ومنها): أنه يُؤمِّن العَبْد من نسيان الله له الذي هو سبب البُعد في الدنيا والآخرة، فإن مَن نَسِيَ الله نسيه الله، ومن نَسيه الله أنساه الله نفسَه ومصالحها قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها فهلكت، وصار أمره فرطاً، فانفرط عليه أمره وأحاطت به أسباب الخَيْبة والحِرْمان والهلاك في معاشه ومَعاده، كما أن مَن نَسِيَ بستانه ومزارعه فلم يقم بها ولم يتعاهدها ضاعت وفسدت وهلكت ولكن أين هلاك الدين من هلاك المال؟ فإن هلاك الدين لا صَلاح بعده ولا فلاح، والعياذ بالله تعالى ولو لم يكن في الذكر إلا هذه الفائدة لكفى فمن نَسِيَ الله أنساه نفسه ومصالحها في الدنيا، ونسيه في العذاب في القبر وفي العُقْبى، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦] أي تنسى في العذاب، فلا أمان للعبد من ذلك كله إلا بذكر الله تعالى.

(ومنها): أن يتيسّر للعبد وهو على فراشه أو في سوقه فيسبق الصائم القائم مع الغفلة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فالفضل الذي رتب فيه لم يُرتَّب على غيره مع أنه أيسر العبادات.

وفي الحديث: «من شَغَله ذِكري عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطي السائلين» وفي الصحيحين: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يومه مائة مرة كانت له عِدْل عشر رقاب وكُتب له مائة حسنة ومُحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه».

وفيهما: «من قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة حُطّت خطاياه وإن كانت مثل زَبَدِ البحر».

وفي الترمذي «من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير. كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة».

فالذكر يعدل عتق الرقاب، ونفقة الأموال، والجهاد في سبيل الله، والصيام والقيام والحج والعمرة وينوب عن الطاعات النّفْليّة كلها، سواء كانت بدنية أو مالية أو بهما معاً كحج التطوع.

كل ذلك قد جاء في الحديث الصحيح.

(ومنها): أنه طريق الطائفة أهل الله، ومَنْشور الولاية، فهو باب الدخول على الله، وهو في طريق القوم بمَثابة الطهارة للصلاة فمن تطهر وجد ربّه وناجاه ومن وَجده وجد عنده كل شيء، كما أن من فقده فقد كل شيء.

فالذكر أصل موالاة الله تعالى كما أن الغفلة رأس معاداته فمن أكثر من ذكر الله أحبه، ومن أحب الله أحبه الله، ومن أحبه الله كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، فيسمع

بالله ويبصر بالله، وينطق بالله، ومن غفل عن الله وأعرض عن ذكره أدى ذلك إلى أن يكره ذكر الله، وتنفر نفسه عن مُجالسة ذكر الله وعن الذاكرين، وذلك علامة عداوته لله من حيث لا يشعر. والعياذ بالله.

(ومنها): أن مجالس الذكر رياض الجنة، فمن شاء أن يرتع رياض الجنة فليذكر الله وهي أيضاً مجالس الملائكة الكرام عليهم السلام.

وفي صحيح مسلم: «لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده».

وفي الصحيحين: «إن لله ملائكة يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم فتحفهم الملائكة بأجنحتها إلى سماء الدنيا» الحديث.

(ومنها): أن الأعمال كلها إنما شرعت لإقامة ذكر الله قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] أي لأجل ذكري وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي أكبر من كل عمل.

واعلم أن ما ورد في فضل الذكر من الآيات والأخبار والآثار لا يُحصى بل قد انكشف لأرباب البصائر أن ذكر الله تعالى بشروطه وآدابه أفضل الأعمال. «فإن قلت»: ما باله مع خفيته على اللسان وقلة التعب فيه أفضل وأنفعَ من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها «فاعلم»: أن تحقيق ذلك لا يليق إلا بعلم المُكاشفة. والقدر الذي يسمح لك بذكره في علم المُعاملة أن تعلم أن المؤثر الدافع للقلب هو الذكر على الدوام مع حضور القلب مع الله. فأما ذكر اللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى وفي الأخبار ما يشهد لذلك. فحضور القلب مع الله على الدوام هو المقدم على سائر العبادات بل به شرف سائر العبادات وهو

غاية ثَمَرة العبادات العملية وللذكر أول وآخر، فأوله يوجب الأنس بالله وآخره يوجب الحُبَّ لله، والمطلوب ألا يذكر إلا مع الأنس بالله.

والذاكر يكون في البداية مُتكلفاً لصرف قلبه عن الوسواس ولسانه عن اللغو إلى ذكر الله ثم يأنس بذكر الله تعالى، وينغرس في قلبه حب المذكور، ثم يصير مُضطراً إلى كثرة ذكر الله تعالى، فإن من أحبَّ شيئاً وَلع بذكره ولم يصبر عنه.

المُهْلكات والمُنْجيات

اعلم أن الأخلاق المَذمومة والخصال المَمْقوتة كثيرة وكذلك الأخلاق المحمودة والخصال المحبوبة التي ينبغي للمؤمن أن يتحلّى بها كثيرة أيضاً وقد استوفى الكلام في ذلك كله الإمام حجة الإسلام في النصف الثاني من «الإحياء» في ذكر المُهْلكات والمُنْجيات، وكلامه في هذه الفنون هو المعوّل عليه والمرجع إليه، لكماله في العلم والعبادة، والزهد والمعرفة، ولأنه جمع في ذلك كلام من تقدّمه من السلف الصالح ومشايخ الطريق. وقد اقتفى آثاره واقتبس من أنواره من جاء بعده من أهل هذا الشأن من علماء المسلمين وصالحيهم من أهل سائر الآفاق والبلدان مثل شيخ الإسلام الإمام عبدالله بن عَلَوي الحَدّاد صاحب «النّصائح الدينية» كما يعرف ذلك ويعلمه تحقيقاً من له رُسوخ في هذه العلوم، وغَوص واطّلاع على أسرار طريق الله.

المُهْلكات

أما المُهْلكات التي يجب تخلية القلب وإعراضه عنها فكثيرة فنذكر شيئاً من أمهاتها ومُهماتها:

الشك في الدين

من أعظم أمراض القلوب: الشك في الدين.

فأول ذلك: أنه يجب على الإنسان أن يُزكّي قلبه. ويطهره من رَذيلة الشك في الله ورسوله والدار والدار الآخرة، فإن ذلك من أعظم أمراض القلوب المُهلِكة في الآخرة.

والتي تضر ضرراً عظيماً، خصوصاً عند الموت، وقد تُؤدي والعياذ بالله إلى سُوء الخاتمة، وهذا الشك قد يُبتلى به بعض الناس. فلا يجوز لمن وَجد شيئاً من ذلك أن يُضمره في نفسه، ويطويه في قلبه فيلقى الله شاكاً، بل يجب عليه أن يَجتهد في إزالة ذلك، ويسعى في نفيه عنه بكل ما يمكنه.

ومن الشك في الله أن يعتقد فيه سبحانه وتعالى ما لا ينبغي مما ينافي كمال التنزيه.

ومن الشك في رسوله ﷺ أن يعتقد فيه ما لا ينبغي مما ينافي كمال العصمة له وذلك كاعتقاد ما يُخرجه عن حَدّ البشريّة إلى حَدّ الألوهية أو اعتقاد ما يساويه مع البشر سواء في كل شيء بلا مزيّة فكلا الاعتقادين باطل.

وأنفع الأشياء في إزالته سؤال العلماء بالله تعالى وبدينه أهل اليقين والخشية والزهد في الدنيا، فإن لم يُصادف واحداً منهم فلينظر في كتبهم التي ألّفوها في علوم التوحيد واليقين. ولستُ أعني بالشك ما يجده الإنسان من الخواطر والوساوس في أمور الإيمان بما يعلم بُطلانه، ويجد قلبه مُصَمّماً على خلافه، ونفسه كارهة له نافرة عنه، فإن ذلك هو الوسوسة، ويكفي الإنسان فيها أن يكرهها ويُعرض عنها ويستعيذ بالله منها.

من أعظم أمراض القلوب الكِبْر والخُيلاء

ومن أعظم أمراض القلوب وصفاتها المُهلكة: (الكبر) وهو من

صفات الشياطين قال تعالى في إبليس اللعين: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] المُتكبّر يغيض إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل: ٢٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] والخيلاء والفخر من أوصاف المتكبرين، والمتكبر متعرض لأن يَطْبع الله على قلبه كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥] والمتكبر مصروف عن آيات الله، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: الكبرياء رِدائي والعَظَمة إزاري، فمن نازَعَني واحداً منهما أَلْقيْته في النار» رواه مسلم وابن حبان في صحيحيهما وابن ماجه واللفظ له.

وقال عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل ممن كان قبلكم يَجُرّ إزاره من الخيلاء فَخسف الله به الأرض، فهوَ يَتَجلجل فيها إلى يوم القيامة». رواه الشيخان والنسائي وغيرهم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مِثْقال ذَرّة من كِبْر فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسَناً ونَعْله حسنة فقال عليه الصلاة والسلام: إن الله جميل يحب الجَمال الكِبرُ بَطَر الحق - يعني ردّه - وغَمْط الناس». رواه مسلم.

يعني احتقارهم وازدراءهم فمن تعاظم في نفسه وأُعْجِب بها واحتقر الناس واستصغرهم فهو المتكبر المَمْقوت.

والكبر إنما يكون في القلب، ولكن تكون له علامات في الظاهر تدل عليه، فمنها حُبّ التقدّم على الناس، وإظهار الترفّع عليهم، وحب التصدّر في المجالس والتبَخْتُر والاختيال في المشْيَة، والاستِنْكاف من أن يردّ عليه كلامه وإن كان باطلاً، والامتناع من قبوله

والاستخفاف بضَعَفَة المسلمين ومساكينهم ومنها: تزكية النفس والثناء عليها، والفخر بالآباء من أهل الدين والفضل، والتبجح بالنسب وذلك مذموم ومُستقبح جداً، وقد يُبتلى بعض أولاد الأخيار ممن لا بصيرة له ولا معرفة بحقائق الدين.

ومن افتخر على الناس بنسبه وبآبائه ذهبت بركتهم عنه، لأنهم ما كانوا يفتخرون ولا يتكبرون على الناس، ولو فعلوا ذلك لبطل فضلهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ بَطّأ به عملُه لم يُسْرِعْ به نسبه» رواه مسلم.

وقال ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد، ويا صَفيّة عمة رسول الله - ﷺ - لا أُغني عنكم من الله شيئاً، اشتروا أنفسكم من النار» رواه مسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا فضل لأحمر على أسود، ولا لعربي على عجمي إلا بتقوى الله أنتم من آدم وآدم من تراب» رواه الترمذي وأبو داود.

وقال عليه الصلاو السلام: «لَيَنْتَهِينّ أقوام عن الفَخْر بآبائهم أو لَيَكونَنّ أهْوَن على الله تعالى من الجُعْلان» رواه أبو داود والترمذي.

فالفضل والكرم بالتقوى لا بالنسب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولو أن إنساناً كان من أتقى الناس وأعْلَمِهم وأعبدهم، ثم تكبّر على الناس وافتخر عليه لأحْبَط الله تقواه وأبطل عبادته، فكيف بالجاهل المخلط الذي يتكبر على الناس بتقوى غيره وصلاح غيره من آبائه وأجداده فهل هذا إلا جهل عظيم وحمق فظيع؟ وإن الخير كلّه في التواضع والخُشوع والخضوع لله.

قال عليه الصلاة والسلام: «من تواضع لله رَفعه الله، ومن تكبر وَضَعه الله» رواه الطبراني.

وإن حُبّ الخُمُول والاختفاء، وكراهية الشهرة والظهور لَمِنْ أخلاق صالحي المؤمنين، والرضا بالدون من المَجلس ومن اللباس والطعام وسائر أمتعة الدنيا كذلك أيضاً، فاحرص أيها المؤمن على ذلك.

من أعظم آفات القلوب: الرياء

ومن أعظم المُهلِكات: الرِّياء. وقد سماه رسول الله ﷺ بالشرك الأصغر، والشركَ الخَفِي. ومعنى الرياء طلب المَنْزلة والتعظيم عند الناس بعمل الآخرة كالذي يُصلي ويصوم، ويتصدق ويحج، ويُجاهد ويقرأ القرآن، ليُعظّمه الناس لذلك ويُكرموه أو يُعطوه من أموالهم، فذلك هو المُرائي، وعمله مردود، وسَعْيُه خائب، سواء فعل له الناس ما أَمّلَه منهم أو لم يفعلوه له، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٧].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عَمِل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء ونصيبي لشريكي**» رواه مسلم وابن ماجه ومالك في «الموطأ». وقال عليه الصلاة والسلام: «**من صام يرائي فقد أشرك، ومن صلى يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك**» رواه الإمام أحمد بتقديم من صلى.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من طلب الدنيا بعمل الآخرة طَمَسَ الله وجهه، ومَحَق ذِكْرَه، وأثبت اسمَه في النار**» رواه الديلمي والطبراني وأبو نعيم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من أحسن الصلاة حين يراه الناس، وأساء الصلاة حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه تبارك وتعالى» رواه أبو يعلى وعبدالرزاق في الجامع والبيهقي في «الشعب».

فالرياء مهلك وخطره عظيم، والاحتراز منه واجب مهم، وأشد أنواعه: أن يتجرد باعث الرياء في العبادة بحيث يصير أول ما يقصده الناس، ويصير حريصاً على اطلاعهم ونظرهم إليه، ولم يجد باعثاً على العمل غير ذلك أصلاً، ودون ذلك: أن يقصد بعمله التقرب إلى الله تعالى وطلب ثواب الآخرة، مع مراءاة الناس وطلب المحمدة عندهم والمنزلة وهذا قبيح محبط للثواب، والذي قبله أقبح وأحبط وأخطر، ولا يخلو صاحبه من الإثم والعقاب.

فعلى المؤمن أن يجتهد في دفع الرياء عن نفسه، وأن لا يكون له نية ولا قصد في جميع طاعاته وعباداته إلا التقرب إلى الله وطلب ثواب الآخرة، فبذلك يخلص من الرياء فليخف أعماله ويفعلها في السر، حيث لا يطلع عليه الناس، فذلك أحوط وأسلم، وهو أفضل مطلقاً أعني العمل في السر حتى لمن لم يخف على نفسه الرياء، إلا للمخلص الكامل، الذي يرجو إذا ظهر العمل أن يقتدي به الناس فيه.

نعم، ومن الأعمال ما لا يتمكن الإنسان من فعله إلا ظاهراً، كتعلم العلم وتعليمه، وكالصلاة في الجماعة والحج والجهاد ونحو ذلك، فمن خاف من الرياء حال فعله شيئاً من هذه الأعمال الظاهرة، فليس ينبغي له أن يتركه، بل عليه أن يفعله، ويجتهد في دفع الرياء عن نفسه، ويستعين بالله تعالى، وهو نعم المولى ونعم المعين.

من أعظم الآفات: الحسد والحقد والغش

ومن المهلكات: الحسد للمسلمين، ومحبة الشر لواحد منهم

وإضمار العداوة والغشّ والحِقْد له. وقِلّة الرحمة بهم والشفقة عليهم، وسوء الظَّن بهم، فكل ذلك من الصفات المُهْلِكَة.

أما الحَسَد: فحسبُك به ذماً وقُبحاً أن الله تعالى أمَرَ رسول الله ﷺ بالاستعاذة من شرّ الحاسد، كما أمره بالاستعاذة من شر الشيطان فقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحَطَب» رواه أبو داود.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد» رواه ابن حبان في صحيحه وهو طرف من روايته.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تَدابَرُوا..» متفق عليه.

ومعنى الحسد: أن يجد الإنسان في صدره وقلبه ضِيقاً وحَرَجاً، وكراهية لنعمة أنعم الله بها على عبد من عباده في دينه أو دنياه، حتى إنه ليُحبّ زوالها عنه، وربما تمنّى ذلك وإن لم تضر إليه. وذلك مُنتهى الخُبْث. فمن وجد شيئاً في نفسه من هذا الحسد لأحد من المسلمين فعليه أن يكرهه ويُخفيه في نفسه، ولا يُظهره بقول ولا فعل، فلعله أن يَنْجُو بذلك من شره.

ولا بأس بالغِبطة: وهي أن تتمنّى لنفسك مثل النعمة التي تراها على أخيك من فضل الله ثم إن كان ذلك من النعم الدينية كالعلم والعبادة كان محموداً، وإن كان من النِعَم الدُّنيوية كالمال والجاه المباح كان ذلك جائزاً مباحاً.

وأما حُبّ الشر لأحد من المسلمين، وإضمار الغش والعداوة والحِقد فحسبك زاجراً عنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن

أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه».

وقال عليه الصلاة والسلام: «من غَشّ المسلمين فليس منهم». رواه الطبراني في «الكبير».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن قدرتَ أن تُصبح وتمسي وليس في قلبك غِشّ لأحد فافعل وذلك من سُنتي» رواه الترمذي.

الغِشّ: ترك النّصيحة والتّزين لغير مصلحة.

الحِقد: الانطواء على العداوة والتّربّص لفُرْصَتها.

من أعظم الآفات: قلة الرحمة بالمسلمين وسوء الظن بهم

وأما قلة الرحمة بالمسلمين والشّفقة عليهم فذلك يَدُلّ على قساوة القلب، وعلى الفَظاظة والغِلْظَة، وكلّ ذلك مذموم وقبيح، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ارحموا من في الأرض يَرْحمكم من في السماء» رواه أبو داود والترمذي، وقال عليه الصلاة والسلام: «من لا يَرْحم لا يُرْحَم» رواه الشيخان، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما يرحَمُ الله من عبادِه الرُّحَماء». رواه الشيخان.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُنْزَع الرحمة إلا من شَقِيّ» رواه أبو داود والترمذي.

ومن لم يجد في قلبه رَحمة وشَفَقة على جميع المسلمين سِيَّما على أهل المَصَائِب والبَلايا، وأهل الضّعف والمَسْكنة فذلك لِقساوة قلبه، وضَعْف إيمانه، وبُعده عن ربه.

وأما سوء الظن بالمسلمين فمذموم قبيح، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث». متفق عليه.

ومعنى سوء الظّنّ بالمسلمين: أن يظُنّ بهم السوء في أقوالهم

وأفعالهم التي ظاهرها الخير، وتظن بهم خلاف ما يُظهرون من ذلك، هذا غايته.

وأيضاً: أن يُنزل أفعالهم وأقوالهم التي تحتمل الخير والشر على جانب الشر، مع إمكان تنزيلها على جانب الخير، فذلك من سوء الظن أيضاً، ولكنه دون الأول، وحسن الظن بالمسلمين خلاف ذلك كله، فما كان من أفعالهم وأقوالهم ظاهرة الخير حملته على الخير أو ظننت فيهم الخير وما كان من الأقوال والأفعال يحتمل الخير وغيره نزّلته على الخير. فاعمل على ذلك جهدك، واستعن بالله تعالى والله ولي التوفيق.

من أعظم الآفات: حُبّ الدنيا

ومن المُهلكات العظيمة: حب الدنيا وإرادتها، وشدّة الحرص عليها والرغبة فيها وحب الجاه والمال، وكثرة الحرص عليهما، والشُحّ والبخل، فجميع هذه المذكورات من الصفات المُهلكات، والخصال المَذمومات. ومن أحبّ الدنيا وأرادها، واشتدّ حرصه عليها وعظمت رغبته فيها فقد تعرّض بذلك لخطر عظيم، ووعيد من الله شديد، قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦].

وقال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨] وقال تعالى مزهّداً عباده في الدنيا ومذكراً لهم بذهابها وفنائها: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

بيان المراد من الدنيا في مَعْرَض الذم

ثم إن الدنيا عبارة عن كل ما على وجه الأرض من المُشْتَهيات واللذات، وأصناف الأمتعة التي تشتهيها النفوس وتَميل إليها، وتحرِص عليها. وقد جمع الله أصول ذلك كله في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فمن أحب ذلك ورَغِب فيه، واشتدّ حرصه عليه، وليس له غرض في ذلك إلّا مجرد التمتع والتلذذ والتنعّم صار بذلك من جملة المحبين للدنيا والراغبين فيها، فإن أفرط به ذلك وغلب عليه حتى لم يُبالِ من أين أخذ الدنيا من حلال أم حرام، وحتى اشتغل بسبب حرصه على الدنيا وسَعْيه لها عما فرض الله عليه من طاعته، ووقع بسببه فيما حرّم الله عليه من معصيته فقد تحقق في حقه الوعيد الوارد في المحبين للدنيا والمُريدين لها، والراغبين فيها من غير شك وصار أمره في نهاية الخطر، إلّا أن يتداركه الله بتوبته قبل مماته، وقبل خروجه من هذه الدار.

من أعظم الآفات: حب الجاه والمال

وأما حب الجاه والمال، وكثرة الحرص عليهما فمذموم جداً، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

فمن اشتدّ حرصه على الجاه، وطلب المنزلة، والتعظيم في قلوب الناس فقد تعرّض بذلك لآفات كثيرة، كالكبر والرياء، والتزيّن والتصنّع، وترك التواضع للحق وأهله، وكراهية الخمول، إلى غير ذلك من البليّات.

ومن اشتدّ حرصه على المال تعرّض بذلك لأخطار عظيمة، وبليّات جسيمة إن لم يحفظه الله ويتداركه برحمته.

والمذموم من حب الجاه والمال ومن الحرص عليهما شدّة ذلك وإفراطه، حتى يطلبهما الإنسان ويتسبّب في حصولهما بكل وجه يمكنه من جائز وغير جائز، ويصير بهما في شغل شاغل عن التفرغ لعبادة الله وذكره، كما يقع ذلك كثيراً لبعض المفتونين الغافلين عن الله تعالى.

فأما من طلب ذلك بنيّة صالحة للاستعانة به على الآخرة، وصيانة الدين والنفس عن تعدّي الظالمين، وعن الحاجة إلى الناس، ولم يشتغل بسبب ذلك عن عبادة الله تعالى وذِكره، ولم تفارقه التقوى والخوف من الله فذلك مما لا بأس به ولا حرَج فيه إن شاء الله تعالى.

وعلى كل حال فقلّة الحرص على الجاه والمال وترك الرغبة فيهما أسلَم وأحوَط، وأقرب إلى التقوى وأشبه بهدي السلف الصالح.

من أعظم الآفات: الشُّحُّ والبُخل

وأما الشُّح والبخل: فقبيحان مُهلكان، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

والشُّحُّ: هو البخل المُفرط الشديد، وهو كما قال بعض العلماء رحمهم الله: حرص الإنسان على أخذ ما في أيدي الناس.

وأما البخل فهو بُخْل الإنسان بما في يده. وغايته أن يبخل الإنسان بإخراج الحقوق الواجبة عليه في ماله كالزكاة وما في معناها، ومن كان كذلك فهو البخيل حقاً، المُتعرّض للذم والوعيد الواردَيْن في البخل.

وأما من بَخل في الإنفاق في وجوه الخيرات وطرائق القُربات مع التَّمكُّن من ذلك فحاله أهون من حال الذي قبله، ويُسمى بخيلاً أيضاً لأنه قد آثر المال ورغب في إمساكه وبَخِل ببذله فيما هو أرفع وأنفع له عند ربه: من الدرجات العُلى، والخيرات الباقية في الدار الآخرة، وما دام الإنسان يرجّح إمساك المال على بَذْله في مَحابّ الله ومراضيه فهو غير خالٍ عن شيء من البخيل. ولا يكون الإنسان جواداً سخياً حتى يكون بَذل المال في محابّ الله أرجح عنده وأحب إليه من إمساكه.

فاعلم ذلك واعمل عليه والله يتولّى هُداك.

من الآفات المُهْلكة: الغُرُور

ومن المُهْلكات: الغرُور، ومعناه: أن يُلبّس الإنسان على نفسه، ويُريها الأمور على خلاف ما هي عليه، وذلك لضعف بصيرته في الدِّين، وقِلّة معرفته بحقائقه، لجهله بآفات الأعمال ومكائد الشيطان، ولغلبة هوى النفس عليه، وركونه إلى أمانيها وخِدَعها وقد قال الله

تعالى مُحذِّراً لعباده من الغُرور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]. وقال تعالى في وصف بعض المُغترين: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «الكَيِّس من دان نفسَه وعَمِل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسَه هواها وتمنّى على الله الأماني».

وأنواع الغرور كثيرة، وأصناف المُغترين من المُطيعين ومن العاصين كثيرة. ومن أمثال الغرور في أهل الطاعات: أن يطلب الإنسان العلم ويُسوِّف العمل، ثم يَحتجّ لنفسه بما وَرَد في فضل العلم وفضل طَلَبه ويَغفل عمّا ورد من الذمّ والوعيد الشديد في حق مَنْ لا يعمل بعلمه.

ومنها: أن يتعلّم ويُعلِّم للرياسة والطَّمَع في الناس. ويظن بنفسه أنه يتعلّم ويُعلِّم لله، ولا يُناقش نفسَه ولا يختبرها بأحوال أهل الإخلاص.

ومنها: أن يُكثر الصلاة والقيام وأفعال الخير، ثم يُعجِب بنفسه، وينظر إلى حَوْله وقُوّته، وينسى مِنّة الله عليه في توفيقه وهدايته.

والعُجْبُ مُحْبِط للأعمال، أو يرائي بعُبادته ويطلب بها المنزلة عند الناس، ويظن بنفسه الإخلاص وإرادة التقرب إلى الله وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: حبّذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يَغلبون سَهر الحَمقى وصومهم، ولَذرّة من صاحب يقين وتقوى أفضلُ من أمثال الجبال من أعمال المُغترين.

ومن أمثال غرور العُصاة: أن يعصي الإنسان ثم يتوب ويستغفر بلسانه من غير مَعْرفة بشَرائِط التوبة وتَحْقيقها ثم يظن نفسَه أنه قد تاب

وقد غفر الله له.

ومنها: أن يُكثِر المعاصي ويُصرّ عليها، ويُقصّر في الواجبات، ثم يَحتجّ لنفسه بالقَدَر وأنه لا اختيار له ولا قُدرة على ترك ما قد كُتِب عليه، وهذا غرور عظيم، والقائل به مُبتَدِع وليس من أهل السُّنَّة.

ومنها: أماني المَغفِرة مع التَّقصير عن امتثال الأوامر واجتناب المَحَارم، وقول بعض العُصاة والمُقَصِّرين: إن الله غنيّ عنا وعن أعمالنا، وليس تَضُرُّه الذنوب ولا تنفعه الطاعات، وهذا الكلام حقٌّ أُريد به باطل، وقد ألقاه الشَّيطان على قلب هذا المُتَمَنِّي، وأَجْراه على لِسانه لِيَقْطَعه به عن المغفِرة، وعن السَّعْي لها الذي أمره الله به.

ومنها: اتِّكال بعض العُصاة والمُخلِصين على صلاح آبائهم وأجدادهم من أهل العلم والصَّلاح، مع ترك الاقتداء بهم في أخلاقهم وأفعالهم وأقوالهم الصالحة. وذلك من الغرور المَذموم، والحمق الفاحش.

ومنها: اغترار بعض العصاة برُؤْية الصالحين وخِدمتهم، وحُسْن الظن بهم مع المُجانَبَة والمُباعَدَة لما هم عليه من الخير والصلاح، والملازمة لطاعة الله.

وأنواع الغرور كثيرة كما تقدّم، ولا يُنجي منها إلا الرجوع إلى الله، والاتّكال على مَحْض فضله وكرمه، مع الجزم والاحتياط والتّشمير في طاعته، والجد والاجتهاد في عبادته، ومع اجتناب مَعْصيته، والشكر له على ذلك مع الاعتراف بغاية التّقصير عن القيام بأقل شيء من واجب حقّه، ومع ملازمة الانكسار، ونهاية الافتقار إليه، مع دوام التّضرّع والدّعاء، ولزوم الاستغفار آناء اللّيل والنهار، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وإليه أُنيب.

(١) الصواب: إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها

المُنْجيات

وأما المُنْجِيات التي يجب تَحْلِيَة القلب بها فكثيرة، فنذكر شيئاً من أُمّهاتها ومُهِمّاتها، ونُنَبِّه عليها بكلام مُجْمَل وَجيز، إن شاء الله تعالى.

التوبة

فمن أعظم المُنْجيات التوبة إلى الله تعالى من جميع الذنوب وقد أمر الله عز وجل عبادَه بالتوبة ورغّبهم فيها ووَعَدهم بقبولها فقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقال تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٩] وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥] وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «التائبُ من الذنب كمن لا ذنب له» رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير والبيهقي في «الشُعَب».

وقال ﷺ: «إن الله يَبْسُط يده بالنهار ليتوب مُسيء النهار حتى تطلع الشمس من مغربها»(١) رواه مسلم وقال ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشْغَلوا، وَصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذِكْرِكم له» رواه ابن ماجه. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر» رواه الترمذي وابن ماجه، أي تبلغ روحه إلى الحُلْقوم حين الموت. وقال عليه الصلاة والسلام: «ويتوب الله على من تاب» رواه أحمد والشيخان.

شروط التوبة:

ثم اعلم رَحمَكَ الله أن التوبة ليست هي قول العَبْد بلسانه أستغفر الله وأتوب إليه، من غير نَدَم بالقلب، ومن غير إقلاع عن الذنب.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله للتوبة شرائط لا بُدّ منها، ولا تتم التوبة إلا بها وهي ثلاثة: (الأول): الندم بالقلب على الذنوب السالفَة. و(الثاني): الإقلاع عن الذنب ومعناه أن لا يتوب من ذنب وهو مقيم عليه وملازم له. و(الثالث): العَزْم على أن لا يعود إلى الذنوب ما عاش وهذه الثلاث لا بد منها في التوبة من الذنوب التي تكون بين العبد وبين ربه. ويزاد عليها «شرط رابع» في الذنوب التي تكون بين العبد وبين غيره من العباد ألا وهو ردُّ المظالم إلى أهلها.

فإذا تاب العبْد من ذنوبه على الوجه الذي وَصفْناه فينبغي له أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو من ربه قبول توبته بفضله وكرمه، ويخاف من عدم قبول التوبة مخافة أنه لم يأت بالتوبة على وجهها الذي أمره الله به، فيكون غير تائب عند الله.

وينبغي لكل مؤمن ويجب عليه وجوباً متأكداً: أن يَحترز من جميع الذنوب احترازاً كُلياً لأن فيها سُخْط الله ومقْته وهي السبب في جميع البَليات والهلكات التي تَحل بالعباد في الدنيا والآخرة. ثم إن وقع في شيء من الذنوب وجب عليه أن يُبادر بالتوبة إلى الله من ذنبه من غير إصرار، ولا إقامة على الذنب، ولا رضا به.

وينبغي لكل مؤمن أن لا يزال تائباً إلى الله، ومُجَدّداً للتوبة في كل حال وحين ذلك لأن الذنوب كثيرة، ومنها الصغائر والكبائر، والذنوب الباطنة، والذنوب الظاهرة، وذنوب يَعلمها العبد، وذنوب لا يعلمها، وقد يُؤاخذ بها من حَيث أنه قصّر في طَلب العلم بكونها

ذنوباً، أو من حيث أن كلها مُقدّمات وسوابق داخلة في العلم والاختيار.

الإكثار من الاستغفار

ومن المتأكد المهم: الإكثار من الاستغفار، فقد أمر الله به، ورغّب فيه فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]. وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]. وقال تعالى في وصف عباده المصلين المُحْسنين: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال عليه الصلاة والسلام: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فَرَجاً، ومن كل ضِيق مَخْرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم. وقال عليه الصلاة والسلام: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً». رواه ابن ماجه والطبراني والبيهقي.

وحسبك في فضل الاستغفار ومنافعه وفوائده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] وقوله تعالى مُخْبراً عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

فالتوبة والاستغفار من كُنوز الخيرات، ومن أعظم أبواب القُرُبات والبَرَكات، ومن أوصل الوسائل إلى جميع خيرات الدنيا والآخرة.

فعليكم رحمكم الله بلزوم التوبة والاستغفار آناء الليل والنهار. ثم إن الشيطان لعنه الله قد يخدع بعض الأغنياء من المسلمين فيقول له: كيف تتوب وأنت لا تعرف من نفسك الثبات على التوبة، وكم تعود

إلى الذنب؟ ويُلقي عليه وساوس من هذا الجنس فليحذره المسلم ولا يغتر. ولا يأخذ بتزويره وتلبيسه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة» رواه أبو داود والترمذي. وعلى العبد أن يتوب، ويسأل من ربه الإعانة والتثبيت. ثم إن غلبته نفسه على العود إلى الذنب فليغلبها على العود إلى التوبة. والله الموفق والمعين.

الرجاء والخوف

ومن المنجيات (الرجاء في الله والخوف من الله) والرجاء والخوف من المقامات الشريفة، وقد وصف الله بهما أنبياءه والمرسلين وأتباعهم بإحسان من صالحي المؤمنين قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

واعلم أن الخوف زاجر، يزجر الإنسان عن المعاصي والمخالفات، والرجاء قائد يقود العبد إلى الطاعات والموافقات، فمن لم يزجره خوفه عن معصية الله عز وجل ولم يقده رجاؤه إلى طاعة الله تعالى كان خوفه ورجاؤه حديث نفس لا يعتد بهما ولا يعول عليهما، لخلوهما عن ثمرتهما المقصودة، وفائدتهما المطلوبة.

وقد ساء فهم بعض الناس في معنى الرجاء في الله وظنوا أن معناه إباحة الإقبال على المعاصي والاستمرار فيها اعتماداً على سعة الرحمة الإلهية فهلكوا من حيث لم ينووا. وقد وقع في ذلك طوائف من عامة

المسلمين المُغتَرّين بالله، والرجاء على هذا الوصف هو الرجاء الكاذب وهو الاغترار بالله، وليس من الرجاء المحمود في شيء، لأن الرجاء المحمود هو الذي يقود العبدَ إلى العمل بطاعة الله، ويحمله على سلوك سبيل مَرْضاته. فليحذر المؤمن من الرجاء الذي يكون بهذه المثابة، فإنه غُرور من الشيطان، وشرٌّ ساقَه إليه في مَعْرض الخير.

وليحذر المؤمن كل الحذر من الأمن من مَكْر الله ومن القُنوط من رحمته، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] وقال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

والأمن من مَكْر الله: عبارة عن تَمَحُّض الرجاء وذهاب الخوف من الله بالكلّية حتى لا يُجوّز أن الله يعذبه ويُعاقبه.

وأم القُنوط: فهو عبارة عن تَمَحُّض الخوف وذهاب الرجاء بالكلّية حتى لا يجوّز أن الله يرحمه ويتجاوز عنه. والأمن من مَكْر الله، والقُنوط من رحمة الله من كبائر الذنوب فاحذر منهما أيها المؤمن، وكُن بيْن الخوف والرجاء، ولا تغترّ بربك، ولا تَجترىء عليه فإن ربك سريع العقاب، وإنه لغفور رحيم.

الصبر على البلاء

ومن المُنْجيات العظيمة: الصبر على بلاء الله. والشكر لنعْماء الله والزهد في الدنيا الشاغلة عن الله.

أما الصبر: ففضائله عظيمة، وحاجة المؤمن إليه في الأحوال كلها داعية وعامّة وما ورَد في الصبر عن الله تعالى، وعن رسول الله ﷺ من الأمر والترغيب كثير مُنْتشر قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ

ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وقال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فيحتاج المؤمن حاجة شديدة إلى الصبر عند ورود البلايا من الشدائد والمصائب والفاقات والأذيّات بأن لا يجزع إذا نزل به شيء منها، بل ويطمئن ويتوقّر ولا يَضيق ولا يتضجر، ولا يشكو إلى الخلق، بل يرجع إلى الله بخشوعه وخضوعه، ودعائه وتضرُّعه ويُحسن الظن بربه، ويَعلم يقيناً أن الله تعالى لم يُنزل به ذلك البلاء إلاّ وله فيه خير كثير: من رفع الدرجات، وزيادة الحسنات وتكفير السيئات، كما وَرَدت بذلك الأخبار الشهيرة الكثيرة.

ويحتاج المؤمن إلى الصبر حاجة شديدة عند فعل الطاعات، بألاّ يَكسَل عنها وبأن يُؤديها كما أمره الله من كَمال الحُضور مع الله فيها، والإخلاص لله، وأن لا يكون بها مُرائياً، ولا مُتصنّعاً للخلق. ومن شأن النفس التثاقُل عن الطاعة والتكاسُل عنها فيحتاج العبد إلى إكراهها على ذلك بحُسن الصبر.

ويحتاج المؤمن إلى الصبر حاجة شديدة في كفّ نفسه عن المعاصي والمحرّمات لأن النفس قد تدعو إليها، وتتحدّث بالوقوع فيها، فيَمنَعها بحُسن صَبْره عن فعل المعاصي ظاهراً، وعن التحدُّث بها والمَيْل إليها باطِناً.

ويحتاج المؤمن حاجة شديدة إلى الصبر عن الشهوات المُباحات، التي تكون رَغبة النفس فيها مَقصورة على التلذُّذ والتمتُّع بالدنيا

المُجرّد، فإن الإنهماك في ذلك، والاسترسال معه يجرُّ إلى الشُّبهات والمحرمات، ويُكثر الرغبة في الدنيا ويُهيّج الحرص عليها، ويحمل على الإيثار للدنيا والأنس بها، وعلى نسيان الآخرة والغفلة عنها، فقد عرفت رحمك الله بما ذكرناه حاجة المؤمن إلى الصبر في عموم أحواله ودوام أوقاته فعليك به تفز بكل خير وتظفر بكل سعادة.

الشكر على النعماء

وأما الشكر: فهو من المقامات الشريفة، والمنازل الرفيعة، قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] والشاكر من المُهتدين الآمنين يوم القيامة وهو أول من يُدعى إلى الجنة.

وأصل الشكر: معرفة العبد بأنّ جميع ما به من النعم، وما عليه منها في ظاهره وباطنه من الله تعالى، تفضلاً منه سبحانه وامتناناً.

ومن الشكر: الفرح بوجود النِعَم من حيث أنها وسيلة إلى العمل بطاعة الله ونيل القُرب منه.

ومن الشكر: الإكثار من الحمد لله، والثناء عليه تعالى باللسان.

ومن الشكر: العمل بطاعة الله وأن يستعين بنعم الله على طاعته وأن يضع نعم الله في مواضعها التي يحبها الله، وذلك هو غاية الشكر ونهايته، وأن لا يتكبر بالنعم ولا يفتخر بها على عباد الله، ولا يبغي ولا يطغى، ولا يعتدي على العباد، ومن فعل شيئاً من ذلك فقد كفر النعمة ولم يشكرها، والكفران سبب لسلب النعم وتبدلها بالنقم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

[الأنفال: ٥٣] أي: بتركهم الشكر عليها فالتارك للشكر متعرض للسلب والهلاك. والشاكر متعرض للخير والمزيد، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن الشكر: تعظيم النعمة وإن كانت صغيرة، نظراً إلى عظمة المُنْعِم بها تبارك وتعالى. ثم إن لله على عبده نِعَماً كثيرة لا تُعَدّ ولا تحصى، والعبد عاجز عن إحصائها فضلاً عن القيام بشكرها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وينبغي للإنسان أن لا ينظر إلى مَنْ فُضِّل عليه في النِعَم على سبيل الغِبْطة والاستكثار، فإنه ربما يزدري نعمة الله تعالى عليه ويَسْتَحْقِرها، فلا يشتغل بشكرها فيكون ذلك سبباً لسلبها عنه وتحويلها منه فلا يعطى الكثير الذي غبط عليه أخاه ويُسلَب مع ذلك القليل الذي أعطاه مولاه لتركه الشكر، وعدم حفظه للأدب مع ربه، وقد فضّل الله بعض العبادَ على بعض لأسرار له في ذلك، وحِكَم لا يطّلع عليها سواه ولمنافع ومصالح لهم لا يحيط بعلمها غيره. فلْيَرْضَ العبد بقسمة ربه، وليشكره على ما أعطاه من نِعَمه، وليسأله المزيد من فضله، فإن خزائن السماوات والأرض في قبضته وجميع الخير بيده، يفعل ما يشاء، وهو على كل شيء قدير.

من المنجيات: الزهد في الدنيا

وأما الزهد في هذه الدنيا: فإنه من أفضل المُنجيات، وأجلّ القُرُبات، وقد قال الله تعالى مُزَهّداً لعباده في الدنيا: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧ ـ ٨].

وحقيقة الزهد: خروج حب الدنيا من القلب، وهَوَانُ الدنيا على العبْد، حتى يكون إدبار الدنيا وقلة الشيء منها أحب إليه وآثر عنده من إقبال الدنيا وكثرتها. هذا من حيث الباطن، وأما من حيث الظاهر فيكون الزاهد منزوياً عن الدنيا، ومُتجافياً عنها اختياراً مع القدرة عليها، ويكون مُقتصراً من سائر أمتعتها مأكلاً وملبساً ومسكناً وغير ذلك على ما لابدّ منه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب» رواه أبو نُعيم في «الحِلية» وابن ماجه والطبراني. فأما من أحب الدنيا بقلبه، وسعى لجمعها يقصد بذلك التنعُّم والتمتع بشهواتها، فهو من الراغبين في الدنيا، وليس من الزهاد في شيء. فإن مال إلى الدنيا ورغب فيها، لا ليتنعَّم ولكن ليُنفقها في وجوه الخيرات والقربات، فهو على خير إن وافق عَمَله نيّته، ولا يخلو في ذلك من خطر. وأما من طلب الدنيا ورَغِب فيها فلم يتيسر له، ولم يحصل على مطلوبه منها فبقي فقيراً لا شيء له، فهذا هو الفقير وليس بالزاهد، وله في فقره فضل وثواب عظيم إن صبر عليه ورَضِي به.

وأما من تَبسّط في الدنيا وتوسّع في شهواتها، وادّعى مع ذلك أنه غير راغب فيها، ولا مُحب لها بقلبه، فهو مُدّعٍ مغرور، لا تقوم له حجة بدعواه وليس له في حالته تلك قدوة يقتدي به من الأئمة المُهتدين والعلماء الصالحين، لا من السلف ولا من الخلف.

من المُنْجيات: التوكل على الله تعالى

ومن المُنْجيات الشريفة: التوكل على الله، والحُبّ لله، والرضا عن الله، وحُسْن النية مع الله، والإخلاص في الظاهر والباطن لله.

وأما التوكل على الله: فهو من أشرف مقامات المُوقنين، وأعز ثمرات اليقين قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٧٩] وقال

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣] وقال عليه الصلاة والسلام: «ولو أنكم توكّلتم على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وأبو نعيم في «الحلية» وفي المأثور: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قُذف في النار. وقالها محمد ﷺ حين قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقال بعض السلف الصالح رحمه الله: مَن رَضي بالله وكيلاً وَجَدَ إلى كل خير سبيلاً.

وأصل التوكل: يقين القلب بأن الأمور كلها بيد الله وفي قبضته، وأنه لا ضار ولا نافع ولا مُعطيَ ولا مانِع غير الله، ثم طُمأنينة القلب وسكونه إلى وعد الله وضمانه، حتى لا يضطرب ولا يتزلْزَل عند وُرُود الشدائد والفاقات، ولا يَفزَع ولا يرجع في المُهمّات والمُلمّات إلا إلى الله تعالى، وإن رجع في شيء من ذلك إلى الخلق كان في الظاهر دون الباطن ويكون على موافقة الأمر الإلهي المشروع.

التوكل لا يقتضي ترك الأخذ بالأسباب

وليس شرط المتوكل أن يكون مُتجرّداً عن أسباب الدنيا، بل قد يكون مُلابساً للأسباب مع التوكل، لكنه يكون مُعتمداً على الله لا على الأسباب، وعلامة صدقه في ذلك أن لا يَسكُن إليها، ولا يَطمئن بها حالة وجودها ولا يتزلزل ولا يضطرب عند فقدها وتشوّشها.

وقد يكون العَبْد مُتجرداً عن أسباب الدنيا، وهو غير متوكل، مهما كان متعلِقاً بالأسباب، ومُلتفتاً إلى الخلق وطامِعاً فيهم.

من المُنْجيات: الحب في الله تعالى

وأما الحبّ في الله: فهو من أشرف المقامات وأرفعها، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» الحديث. رواه الشيخان وقال عليه الصلاة والسلام: «أحبّوا الله لما يغذوكم به من نِعمة، وأحِبّوني بحب الله». رواه الترمذي والحاكم.

ومعنى الحب لله تعالى: مَيْل وتَعلّق وتألّه يَجده العبد في قلبه إلى ذلك الجَناب الأقدس الرفيع، مصحوباً بنهاية التقديس والتنزيه، وغاية التعظيم والهيبة لله تعالى، لا يخالطه شيء من خواطر التشبيه ولا يُمازجه شيء من أوهام التكييف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثم إن مَن صدق في محبة الله دعاه ذلك إلى إيثار الله على ما سواه، وإلى التشمير لسلوك سبيل قُربه ورضاه، وإلى الجِد في طاعته وبذل الاستطاعة في خدمته وترك ما يَشغَل عن ذكره، وحُسن معاملته من كل شيء.

ومن أعظم ما يدل على محبة الله حُسن الإتباع لرسول الله ﷺ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

من المُنجيات: الرضا عن الله تعالى

وأما الرضا عن الله: فهو مَجال شريف عزيز، قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

والراضي عن الله: هو الراضي بقضائه، فمهما قضى عليه سبحانه

بما يُخالف هواه وبما لا تشتهية نفسه من مصيبة في نفس أو مال، أو بلية أو شدة أو فاقة، فعليه أن يرضى بذلك وَيطيب نفساً، ولا يَسخط قضاءَ الله ولا يجزع ولا يتبرّم، فإن لله تعالى أن يفعل في مُلكه ما يشاء، وليس له في سلطانه منازع ولا معارض.

وليحذر العبد عند ذلك: من لَو. ولِمَ. وكيف؟. ولْيعلم إن الله تعالى حكيم عادل في جميع أفعالِه وأقضيته، وأنه لا يقضي لعبده المؤمن بشَيء وإن كرِهته نفسه إلا ويكون له فيه خير وخِيَرة، وعاقبة حسنة فليُحْسن ظنه بربه ولْيرضَ بقضائه ولْيرجَع إليه بذُلّه وافتقاره ولْيقف بين يديه بخضوعه وانكساره. ولَيكثِر من حَمده والثناء عليه في يسره وعسره، وشدته ورخائه. والحمد لله رب العالمين.

من المُنجيات: حُسن النية والإخلاص لله تعالى

وأما حسن النية والإخلاص لله: فذلك من أعظم المنجيات وأهمها قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى» رواه الشيخان. وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما يُبعث الناس على نياتهم» رواه ابن ماجه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من غزا ولم ينوِ إلا عِقالاً فله ما نوى» رواه النسائي. والعِقال: الحبل الذي يُعقل به البعير أي يربط.

وقال عليه الصلاة والسلام: «نية المؤمن خير من عمله» رواه البيهقي والطبراني وذلك لأن النية عمل القلب، والقلب أشرف من الجوارح فكان عمله خيراً من عملها، ولأن النية تنفع بمجردها،

وإعمال الجوارح بدون النية لا نفع لها. وفي الحديث: «ومن هَمّ بحسَنة ولم يعملها كتبها الله عنده حسَنة كاملة» رواه الشيخان، فعليك رحمَك الله بحسن النية وبإخلاصها لله. ولا تعمل شيئاً من الطاعات إلا أن تكون ناوياً به التقرب إلى الله ابتغاء وجهه وطلب رضاه، وإرادة الثواب الأخروي الذي وعد به سبحانه على تلك الطاعة من باب الفضل والمِنّة، ولا تدخل في شيء من المُباحات حتى الأكل والشرب والنوم إلا وتقصد بذلك الاستعانة على طاعة الله، وحصول التقوّي به على عبادته تعالى فبذلك تلحق المُباحات بالطاعات، فإن للوسائل أحكام المقاصد والمغبون من غُبن في حسن النية.

واجعل لك في طاعاتك ومباحاتك نيات كثيرة صالحة، يحصل لك بكل واحدة منها ثواب تام من فضل الله، وما عجزتَ عنه من الطاعات والخيرات ولم تتمكن من فعله فانوه واعزم على فعله عند الاستطاعة، وقل بصدق وعزم وصلاح نية: لو استطعتُه لفعلتُه، فقد يحصل لك بذلك ثواب الفاعل، كما بلغنا أن رجلاً من بني إسرائيل مرّ في وقت مجاعة على كُثبان من رَمل، فقال في نفسه: لو كانت هذه طعاماً وكان لي لقسَمْتُه على الناس فأوحى الله إلى نبيه «قل لفلان: قد قبل الله صدَقَتك، وشكر لك حُسن نيتك».

وفي المأثور: «أن الملائكة إذا صعدوا بصحيفة العبد إلى الله تعالى، يقول الله تعالى لهم سبحانه: اكتبوا له كذا وكذا. فيقولون: إنه لم يعمله. فيقول تعالى: إنه نواه».

وقال تعالى في الإخلاص: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥] وقال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣].

وقال النبي ﷺ: «أخلِص دينك يُجزِك العمل القليل» وسُئل عليه

الصلاة والسلام عن الإيمان فقال: «هو الإخلاص لله» وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان خالصاً له، وابتُغي به وجهه» رواه النسائي وقال عليه الصلاة والسلام: «من أخلص لله أربعين يوماً أظهر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» رواه أحمد في الزهد وأبو نعيم في «الحلية» وابن عَدِيّ.

ومعنى الإخلاص: أن يكون قَصْد الإنسان في جميع طاعاته وأعماله مُجَرّد التقرُّب إلى الله، وإرادة قُربه ورضاه دون غَرَض آخر من مُراءاة النّاس، أو طلب مَحْمَدة منهم أو طَمَع فيهم.

قال سَهْل بن عبدالله التُسْتَري رحمه الله تعالى: نَظَرَ الأكياسُ في تفسير الإخلاص فلم يَجِدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى لا يُمازِجُه شيء، لا نَفْس ولا هَوًى ولا دنيا. انتهى. فالذي يعمل لِقَصْد التقرب إلى الله وطلب مرضاته وثوابه، هو المُخلِص، والذي يعمل لله ولِمُراءاة الناس هو الرائي، وعمله غير مقبول. والذي يَعمل لمُراءاة الناس فقط ولولا النّاس لَم يَعمل أصلاً، أمره خطر هائل، ورياؤه رياء المنافقين. نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العافية من جميع البَليّات.

من المُنْجِيات: الصِّدق مع الله تعالى المُراقَبة له

ومن المُنْجيات الفاضِلة: الصدق مع الله، والمراقبة لله، وحُسْن التفكّر وقِصَر الأمل، وكثرة ذِكْر الموت والاستعداد له.

أما الصدق: فقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩]. وقال

تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].
وقال تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الصِدق يهدي إلى البر، والبرُّ يهدي إلى الجنة، وما يزال العبدُ يَصْدُق ويتحرّى الصِدق حتى يُكتَب عند الله صِدّيقاً، والكَذِبَ يَهْدي إلى الفُجور، والفُجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب حتّى يُكتَب عند الله كذّاباً».

وأول الصدق: مُجانبَة الكذب في جميع الأقوال، ثم إن للصِدْق مَدخلاً في جميع الأعمال والنيات، والأحوال والمَقامات.

ومعنى الصدق فيها: الثَبات عليها، والإتيان بها على الوجه الأحسن الأكمل الأحوط، مع بذل الاستطاعة ونهاية الجِدّ والتّشْمير لله في الظاهر والباطن.

وأما المُراقبة لله فمعناها: استشعار قُرْب الله من العبْد على الدوام وإحاطتِه به ومعيّته له، وإطلاعه عليه ونظرِه إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقال ﷺ: «الإحسانُ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» رواه مسلم. فالمُراقبة مِنْ مقام الإحسان، ومن تحقَّق بها أثمرت له الخشية لله تعالى والحَياء من الله تعالى، وذلك أن لا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، ولا يراه مُتثاقلاً عن طاعته، مُتكاسلاً عن عبادته، مُشتَغلاً عن خِدمَته، غافلاً عن ذِكره وحُسن معاملته.

من المُنجيات: حُسن التفكُّر والاستقامة

وأما حسن التفكر واستقامته: ففيه منافع كثيرة، وفوائد عظيمة وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩ - ٢٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

والتفكر على أنواع كثيرة، وأشرف أنواعه وأفضلها: التفكر في أفعال الله وآياته وعجائب مَصنوعاته في أرضه وسماواته. ومن أحسن التفكر في ذلك أثمر له زيادة المعرفة بالله، وهي الإكسير الأكبر، ومن أنواعه التفكر فيما لله عليك من النعم والآلاء الدينية والدنيوية وحسن التفكر في ذلك يُثمر زيادة الحُبّ لله، ويَحُث على الشكر لله.

ومن أنواعه: أن تتفكر في عِظَم حقّ الله عليك، وكثرة تقصيرك عن القيام بحقوق رُبوبيته. وحُسنَ التفكر في ذلك يُثمر الخوف والخشية والحياء من الله تعالى ويبعث على التشمير والجد في طاعته وإقامة حقه تعالى.

ومن أنواعه: التفكر في الدنيا وسُرعة زوالها، وكثرة أكدارها وأشغالها، وحُسن التفكُّر في ذلك يُثمر الزهد في الدنيا، والتجافي عنها وقلّة الرّغبة فيها.

ومن أنواعه: التفكر في الآخرة وبقائها، وفي نَعيمها ودوام لذاتها وسُرورها. وحسن التفكر في ذلك يُثمر إيثار الآخرة وكثرة الرغبة فيها، والتّشمير في العمل لها. ومَجاري الفكر كثيرة، وكلما كانت بَصيرة العبد أنفذ، وكان عمله أغزر وأوسع، وكان تفكره أعظم وأكثر.

من المُنْجيات: قِصَر الأمل وكَثْرَة ذِكْر الموت

وأما قِصَر الأمل، وكثرة ذكر الموت والاستعداد له فنفع ذلك عظيم وفضله كثير، فإن من قَصُر أمله، وكَثُر للموت ذكره، جَدَّ في صالح العمل وترك التَّسْويف والكَسَل، وزَهِد في الدنيا ورَغِب في العُقبى، وبادَرَ بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى وتباعَدَ عما يَشْغَله عن طاعة الله وعَنْ سلوك سبيل مَرْضاته. ومن طال أَمَلُه، وقلَّ للموت ذكره، كان على الضِّد من ذلك.

قال الإمام الغزالي رحمه الله في البداية: وتَفَكَّرْ في قِصَر عُمُرك وإن عِشْتَ مَثلاً مائة سنة بالإضافة إلى مَقامِك في الدار الآخرة وهي أبدَ الآباد. وتأمل أنك كيف تتحمَّل المَشقَّة والذُّل في طلب الدنيا شهراً أو سنة رجاء أنْ تستريح بها عشرين سنة، فكيف لا تتحمل ذلك أياماً قلائلَ رجاء الاستراحة أبد الآباد، ولا تُطوِّل أملك فيثْقُل عليك عملُك، وقَدِّر قُرْبَ الموت وقُلْ في نفسك: أتحمّل المَشقَّة اليوم فلعلّي أموتُ الليلة، وأصْبر الليلة فلعلّي أموت غداً، فإن الموت لا يَهْجُم في وقت مخصوص وحال مخصوص، وسنّ مخصوصة، ولا بُدّ من هجومه فالاستعداد له أولى من الاستعداد للدنيا، وأنت تعلم أنك لا تَبْقى فيها إلا مدة يسيرة، ولعله لم يَبْق من أجلك إلا نفس واحد أو يوم واحد. فكرِّر هذا على قلبك كل يوم، وكَلِّف نفسك الصبر على طاعة الله يوماً يوماً، فإنك لو قدرت البقاء خمسين سنة وألزمتها الصبر على طاعة الله تعالى نفرت واستعْصت عليكَ، فإن فعلتَ ذلك فرحْتَ عند الموت فرحاً لا آخر له، وإن سَوَّفتَ وتساهَلْتَ جاءك الموت في وقتٍ لا تَحْتَسبه وتحسرتَ تَحَسّراً لا آخر له، وعند الصباح يحمد القوم السُّرَى، وعندَ الموت يأتيك الخبر اليقين، ولَتعلمُنّ نَبأه بعد حين.

* * * * *

الخاتمة في الجهاد
حكمه وفضله

الجهاد فرض مكتوب على المسلمين كالصوم والصلاة، والعمل به ماضٍ إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال ﷺ: «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة» وهو حَشْد القُوَى المادّية والمعنوية وتنظيمها لمحاربة العدو بكل الوسائل التي تتفق مع الفطرة البشرية ولا تمسّ الشرف الإنساني، وتشترك فيه الأمة المُحمّدية جميعاً قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦]. ولا يُعفى منه إلا أربعة أعفاهم الله بشروط خاصة ينتفي للإعفاء منه بانتفائها وهم:

١ ـ الضّعفاء الذين لا يستطيعون حمل السلاح ومنهم أصحاب العاهات.

٢ ـ المرضى حتى يَصحّوا.

٣ ـ الفقراء الذين لا يَجِدون ما يُنفِقون حتى يُغنِيَهم الله.

٤ ـ المُتطوّعون الأقوياء الذين لا يجد الإمامُ ما يجهّزهم به ولا يجدون من يقوم بذلك بشرط أن يقوموا جميعاً من وراء الجيش بالدعاية والنصيحة وأداء ما يستطيعون من أعمال.

قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٣].

حكمه:

وللجهاد أحكام تختلف باختلاف الدّواعي والمُلابَسات فهو تارة مفروض على المسلمين جميعاً لا يَسْقط عن بعضهم إذا نهض به الآخرون، وهو حيناً مفروض عليهم فرض كفاية يقوم به بعضهم فيسقط عن الباقي.

١ - فرض عين:

(أ) إذا هَجَم العدو على بلد من بلاد المسلمين وَجَب على أهل هذا البلد أن يخرجوا إلى العدو ليقوم كل منهم بما يستطيع القيام به ولا يتخلّف منهم أحد سواء أكان من المُقاتلين أم من غيرهم.

وهذا هو النفير العام الذي يشترك فيه الجميع، المرأة والعبد والغلام والشخص الذي له أب أو أبوان سواء أذنا له أم لم يأذنا.

(ب) فإن عَجز أهل هذا البلد عن صدّ عدوهم أو تكاسلوا عن النّهوض له وجب الجهاد على من يليهم وهكذا حتى يصير فرضاً بالتّدريج على المسلمين جميعاً.

٢ - وهو فرض كفاية:

(أ) إذا كان بعض المسلمين قادرين على الدِفاع وقتال الأعداء فإن هَجَم العدو على بلد إسلامي وكان أهل هذا البلد ذوي مَقْدَرة على صدّه فإن الجهاد ليس فرضاً عينيّاً على جيرانهم بل هو فرض كفاية ما

دام إخوانهم غير مُحتاجين إليهم، ولكن إذا عجزوا عن المُقاوَمة أو لم يَعجزوا عنها ولكنهم تراخَوا عن الجهاد صار فرض عين على جيرانهم لا يَسَعُهم تركه، فإن عجز هؤلاء الجيران أو تكاسلوا صار فرض عين على من يَلونهم وهكذا إلى أن يصير فرضاً عَيْنِيّاً على المسلمين جميعاً.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ألا يجعله فرض عين دائماً لئلا يَشتَغِل به المسلمون جميعاً فتتعطل مصالحهم.

(ب) وهو فرض كفاية إذا كان المسلم ممن لا يستطيع الجهاد لأنه مريض بمرض يُقعده أو لأنه غير قادر على حمل السلاح أو لأنه لا يمتلك الراحلة والزاد أو لأنه من الذين أعفاهم الله تعالى.

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨ ـ ٣٩].

(ج) وهو واجب على كل مَن عِلم بضَعف المسلمين عن مُحاربة عدوّهم وهزيمَتِهم وهو يستطيع أن يُغيثهم لأن المسلمين كلهم يدٌ على من سواهم ولهذا إذا استطاع أهل البلد المُعتَدى عليه أن يَرُدّوا عدوّهم سَقَطَ الجهاد عن الآخرين.

(د) كذلك يجب على المسلمين إذا ما قارب دار الإسلام ولم يدخلها حتى يَظهر دين الله ويُصان الوَطن ويُهزم العدو وليس في هذا

خلاف.

فضله:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئِل رسول الله ﷺ أيُّ العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**».

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَغدوة في سبيل الله أو رَوْحَة خير من الدنيا وما فيها**»(١).

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، ومَوْضِع سَوْط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والرَّوْحَة يَرُوحُها العبد في سبيل الله تعالى أو**

---

(١) الغدوة بالفتح المرة من الغدو وهو السير أول النهار إلى انتصافه. والروحة هي السير من الزوال إلى الليل وفي رواية للشيخين أيضاً: خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب. والمراد والله أعلم، أن ثواب الله سبحانه خير من الدنيا وما أودع فيها من الكنوز والنفائس أنفقها المرء في ضروب البر والإحسان.

الغدوة خير من الدنيا وما عليها»(١) متفق عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله ما يعدِلُ الْجهاد في سبيل الله؟ قال: «لا تستطيعونه» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه»، ثم قال: «مثل المُجاهد في سبيل الله كمَثَل الصائم القائم القانتِ بآيات الله لا يَفْتر من صلاة ولا صيام، حتى يَرْجع المُجاهد في سبيل الله» متفق عليه. وهذا لفظ مسلم. وفي رواية البخاري: أن رجلاً قال: يا رسول الله، دُلّني على عمل يَعْدِل الجهاد؟ قال: «لا أجِدُه»، ثم قال: «هل تستطيع إذا خرج المُجاهد أن تدخل مسجدك فتقومَ ولا تَفْتر، وتصوم ولا تُفطر؟» فقال: ومن يستطيع ذلك؟.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

والحمد لله رب العالمين

كتبه

السيد محمد بن علوي بن عباس

المالكي الحسني

---

(١) في الحديث بيان أن صغير الزمان وكبير المكان في الآخرة خير ممن الزمان الطويل والمكان الكبير في الدنيا تزهيداً فيها وتصغيراً لها وترغيباً في الجهاد، لأنه بهذا القليل يعطيه الله خيراً من الدنيا وما فيها، فضلاً عمن اتعب نفسه وأنفق ماله، وكذا غدوة أو روحة في موضع القتال، لأن الجميع يسمى غدوة في سبيل الله، وفيه فضل الرباط وهو ملازمة المكان الذي بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين منهم، ويقال الرباط هو: حفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

* * * * *